

طباعة. نشر. توزيع

حياة نابليون

فاضل

عبد الحميد سالم

تقديم : دكتور

محمد زينهم عزب



حياة نابليون

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد

العنوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - امبابة - جيزة

تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢

رقم الإيداع : ٩٧/٨٣٢١

الترقيم الدولي : 977 - 5819 - 02 - 4

الغلاف : محمد أبو طالب

طبعة جديدة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

حياة نابليون

تقديم

الدكتور: محمد زينهم محمد عزب

الناشر
مكتبة ومطبعة الغد

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تقديم

الصلاة والسلام على أفضل خلق الله صاحب السيرة الزكية المحمدية الصادقة وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع الهدى .

وبعد . يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الإنسانية مكاناً صدراً وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التى تصدر فى الشرق والغرب على السواء .

وإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى كانت المؤلفات فى التاريخ وما يتصل به من تراجم وقصص تاريخى وآثار وسياسة ومذكرات تكون خمس المكتبة العالمية ، وفى أيامنا هذه . ورغم اتساع ميادين المعارف وغلبة الأهتمام بالعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية على الاهتمام بما عداها .

لازالت مؤلفات التاريخ تحتل جانبا ضخماً مما ينشركل عام وخاصة إذا أضفنا إليها ذلك النوع الجديد من الكتب الذى يؤلفه نفر من أذكياء أهل الصحافة والأدب عن حوادث التاريخ الجارى Current History ورجاله ويكفى أن نشير إلى العدد الضخم من المؤلفات التى صدرت خلال السنوات الأخيرة عن قضايا فلسطين وفيتنام والأمن الأوروبى والأستعمار الجديد و الشيوعية والأشراكية وتحرر العالم الثالث .

وما إلى هذا من موضوعات التاريخ المعاصر ورجال من أمثال لينين وستالين وماوتسى تونج وهوشى ـ منه وونستون تشرشل وشارل دى جول وجمال عبد الناصر وايرنستو « تشيه » جيفارا وجون كيندى وغيرهم ومع ذلك فمازالت حقيقة التاريخ ومكانته بين العلوم وطبيعته وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة .

والكتاب الذى بين أيدينا « رب الحرب أو نابليون الأول » من الكتب الهامة

التى تلقى الضوء على نابليون الأول من حياته وتربيته وتعليمه وتتدرجه فى الوظائف العسكرية .

فهذا الكتاب هو النور الذى يجعلنا نعيش هذه الشخصية .

وصاحب هذا الكتاب هو الكاتب عبد الحميد سالم الذى اغفلته المصادر والمراجع .

ونسأل الله العون والمغفرة يا أرحم الراحمين

مقدمه

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمـد لله رب العـالمين والصلاة والسـلام على رسوله الأمـين ، وعلى جميع أنبيائه والمرسلين .

أما بعد فهذا سفر نابليون الأول (رب الحرب) كما لقبه بعض لمؤرخين . دفعنى إلى وضعـه ما أراه من محبى التاريخ فى تقديسـهم سيرة ذلك البطل العظيم ، الذى خبر الدهر وكـبح جماحه ، وبنى له مجداً لا يمـحوه كر الغداة ومر العشى وقد اسميته (رب الحرب) فهو خليق بأن يحمل بسموه وعظمته هذا اللقب : أكـتب هذا السـفر فى حـياة بطل تـناوله أقلام المؤرخـين من كل صوب ، فمنهم من روى سيرته فى اسـهاب ممل ، ومنهم من قص ناحية من حياته فى إيجاز مخل .

لا يقنع بقـراءتها الشغـوف الذى يريد أن يحيط علمـاً بخلال هذا الجـبار الداهية وعواطفه ومزاياه فى شتى أطوار حياته ، حـين كان فتياً وشيخاً . أخا وزوجاً وعاشقاً . وقائداً مظفراً ، ثم كسير الفؤاد مقهوراً .

لم أختر شطراً من سيـرته ، ولا ناحيةمن حياته فحـسب بل طرقت كثيراً من أسرارحياته وأطوارها .

ولامـراء فى أن السـواد الأعـظم يجـد لذة وعـبـرة فى مطالـعـة حـبـه «لجوزفين » وخطاباته الغرامية لها ، مما يدهش لها قارىء سيرة رجل حربى شغف بالقـتال وتلذذ بسفـك الدماء . طباعـه القسوة ، وجـبلته تعكير صـفو السـلام .

كذا أوردت أعـماله الحربيـة تلك التى شغلت جل أيامـه وكانت سبـباً فى اذاعة صيته ، وجعلت منه شخصية فذه مثالاً للجرأة .

ورمزاً للبطولة باقيا أبد الدهر ذخيرة للأحفاد .

إذا كيف يتفق ما آتاه نابليون مع مناسبات الحياة البشرية .

ولقد رجوت أن يكون هذا الكتـاب وصفاً مجملاً لحَياة نابليون ، فافردت لكل ناحية من نواحى حياته فصلاً خاصاً فكانت له تلك ميزة . وذلك خشية التكرار وراحة للقارىء ، حتى يلج الغاية التى يرجوها دون اضطراره الإطلاع على الكتاب كله فيتم له الأمر بدون عناء .

فإلى كل نفس سامية تنشد المثل العليا تتخذها اسوة حسنة وإلى أبناء وادى النيل الكرام الذى وطأت أرضهم قدم نابليون أجود بما جادت به قريحتى مقدماً أول سفر ألفته وأنا بين جدران دور العلم عسى أن أكون قد وفقت إلى القيام بشىء للخدمة العامة والسلام .

القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ م.

عبد الحميد سالم

الفصل الأول

أيام الصبا

فى باكورة اليوم الخامس عشر من شهر اغسطس سنة ١٧٦٩ م غادرت « لاتيشيارامولينو » منزلها قاصدة إحدى كنائس مدينة أچاكسيو عاصمة جزيرة « قرشقة » حيث تؤدى فريضة الصلاة كما هى عادة أهل هذا البلد .

وما كادت تنهى صلاتها حتى شعرت بألم حملها على الإسراع إلى دارها حيث وضعت طفلها الصغير الذى سمته « نابليون » .

وقبل أن نعرض لذكر سيرة ذلك البطل يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن أصل والديه .

قال كل مؤرخ عنهما ما شاء أن يقول فمن مثبت لهما رفعة إلى سالبها ، وقائل أنهما كانا فى ضعة .

لست محابياً لهذا أو ناقداً لذاك فلدينا مصادر وثيقة تعرفنا أصل «نابليون » .

لما عقد أمبرطور النمسا لابنته على « نابليون » قال « إن لم أكن على ثقة من أن عائلة « نابليون » كعائلتى لها شرف حسبها وعراقة نسبها ما منحته ابنتى قط » .

تصريح كهذا يفوه به أمبراطور من أباطرة أوربا العظام لهو الدليل الكافى والحجة الدامغة على شرف نسب « نابليون » وطيب منبته وعراقة أصله .

كان أبوه « شارل بونابرت » شريف من أشراف « أچاكسيو بقرشقة » .

درج من سلالة عائلة « تسكانية » الأصل ونزل بتلك الجزيرة وتزوج بغادة حسناء عام ١٧٦٥ م اشتغل شارل بالمحاماه فنبغ فيها ، وأحرز من ورائها شهرة ذائعة اكسبته احترام عارفيه من سكان الجزيرة .

كانت « لاتيشيا » فتاة حسناء ذات قوام معتدل ووجه فاتن جذاب يسحر كل من يراه ، جمال بارع ، وصفات خلابة ، لـم تؤثر فيها مؤثرات الزمان من كبر أو تحمل آلام . رغم أنها كانت على نقيض أمهات عصرنا الحاضر .

تزوجت « لاتيشيا » ولم تبلغ الخامسة عشر من سنها فكانت مدبرة مقتصدة فى معيشتها .

أدارت بيتها بحزم وثبات مما جعل المطلع على سيرة ابنها يصدق ما يذكره لنا الفلسفة من وراثة الأبناء أخلاق ومزايا الأمهات .

كيف لا يصدق ذلك أليس « نابليون » هو ابن « لاتيشيا » وقد عشق النظام بفضل ما اقتبسه من تعاليم أمه .

أليس « نابليون » هو ذلك المقتصد الذى رمى زوجته باللوم لتبذيرها وإن يكن قد أحبها حبا جماً .

مات « شارل بونابرت » و « نابليون » وأخوته صبية صغار ومالهم من عائل إلا دخل بسيط يسدرمقهم ، ويكفى ضرورياتهم .

قابلت « لاتيشيا» ذلك برباطة جأش وحصافة رأى .

لاقت مافرضه الزمان عليها وهى صاغرة فما ولولت أو يئست حتى صدق القائل عنها « رأس رجل فى جسم امرأة ».

كتب « نابليون » عن مولده فقال « ولدت وسط عواطف من الضجيج والهياج .

ولدت وثلاثون ألف جندى من الفرنسيين ينزلون بوطننا فما كنت أسمع إلا صراخ القتلى وأنين الجرحى ، وتنهد المصابين ، ولدت ودموع اليأس وزفرات الألم تحيط بمهدى » .

شب « نابليون » وترعرع ولم يحطه أبوه بكبير عناية فتارة يجرى مع البحارة على شطوط البحار وطوراً يتسلق سفح الجبال مع رعاة الأغنام .

يصغى بأذن واعية لما يروى له عن ثورة القرشقيين وهياجهم ومطالبتهم بحرية بلادهم يسمع كل ذلك وتبدو من اليافع القرشقى الحسرة على بلده المنكود الحظ .

أهمل « نابليون » تسع سنين ونصف وهو على هذه الحال أستاذه راعى الغنم ورفيقه رجل الشاطىء .

أخذ عن هؤلاء الرعاه قصص أبطال قومه كباؤولى وغيره فكان ما روى على سمعه دافعاً على حب الجندية والانخراط فى سلكها .

أنس « شارل » فى ابنه ميله إلى الجندية فصار يوالى الرجاء والألتماس من ذوى الشأن وأرباب النفوذ كى يحصل على مركزين مجانيين لولديه « چوزيف » و « نابليون » وبعد التعب والنصب ألحق الولدان بمدرسة «اوتون» لتعلم اللغة الفرنسية .

وفى ظرف ثلاثة شهور كان « نابليون » قادراً على الإلمام بها بعض الشىء ، وكان ذلك عام ١٧٧٩م.

كان شعار « نابليون » منذ صباه « الغاية تبرر الواسطة » فلما اندمج القرشقى المسكين بين طلبة مدرسة « برين » الحربية وجد نفسه وسط بيئة لم يألفها . وسط أقران من أبناء علية القوم فى باريس ينفقون الكثير ويصرفون عن سعة فلأول وهلة لم يلائمه جوبرين .

كانت « قرشقه » وقتئذ تابعة لفرنسا ، وكان أصدقاؤه الفرنسيون بالمدرسة يعيرونه لاذلال بلادهم لبلده وتبعية قرشقه كمستعمرة لفرنسا . كان يستشيط نابليون غيظاً لذلك ويجيبهم « ما كان الجندى الفرنسى قادراً على قهر الجندى القرشقى ولكن ما حيلتنا وقد كان يحيط بالقرشقى الواحد أربعة من الفرنسيين ».

أراد زميل له أن يزيد من حدته فقال « ولكن أبوك رضخ » فأجاب «نابليون » « لست غافراً لأبى ومسامحاً إياه » .

وكلما تردد ذكر بطل بلاده باؤولى تنهد وقال بتمتمة « كم أود أن أكون مثله » فانظر كيف كان شعور صبى يبلغ العاشرة من عمره .

حماس يتأجج فى صدره وشعور فياض يذكو فى فؤاده وغيرة على وطنه وبلاده .

كان يؤلم « نابليون » جداً ما يبدو له من غرائب فى بيئته الجديدة وبخاصة ما كان يعانيه من صعوبة نطق الفرنسية والتكلم بها صحيحة .

كما كان يبدو اسمــه غريباً فى نظر أقرانه فكانوا ينادونه (لابايل أونيه) بدلا من (نابليون) .

يظهر لنا مقـدار ضيقه وصعوبة مـقامه بين إخوانه ما كـتبه لوالده وهو بالمدرسة .

« إذا لم ترسل لى مــا يسد حاجـتى فى الوسط الذى أنا فيــه دعنى أعود إليك حالاً .

أمور كـثيرة تتـعبنى قصر اليـد والفقر المدقع وتهـكم أقرانى مع أنهم لم يفوقوا عنى إلا فى الصرف ليس بينهم من فرد يشعر ما أشعربه .

استدعنى ياوالدى من برين ودعنى أعمل كميكانيكى بأحد المصانع وكفى أن تشرح لك تلك الكلمات مقدار يأسى وبؤسى .

ظل « نابليون » على حالته هذه ولم يجـد حيلة للخلاص منها ولكن كانت شجاعته وصراحته عاملاً على ظهوره بين إخوانه .

أبدى لـهم « نابليون » باكورة النبوغ ولم يبد ما بقى عليهم أن يعرفوه مما برهنت به الأيام فيمــا بعد : من أن هذا الشاب يحمل بين جنبيه نفـسا طماحة وقلباً خفاقاً .

وفى أكتــوبر سنة ١٧٨٤ م غادر مـدرسة برين والتحـق بمدرسة باريس الحربية ، وكان سنة إذ ذاك خـمسة عشر سنة لم يغيـر من طباعه ، ولـم ينف إحدى خصـاله بل هو هو « نابليون » .

أرادت أخته « ألـيز » مجاراة قـريناتها فى الصرف فحـذرها « نابليون » بقوله « إن أمي لديها مصروفات كثيرة وليس عندى عمل أكسب منه فانسـجى على منوالى ولاتبذرى فى أشياء ليس من ورائها فائدة » .

مكث « نابليون » سنة بمدرسة باريس ثم رقى إلى رتبة ملازم ثان بفرقة « فالانس » فى أكتـوبر سنة ١٧٨٥م ، وكان أحد الستة الذين تخـصصوا فى المدفعية .

كتب الضــابط الذى امتحن « نابليون » مـذكرة عنه عند تأديته الأمـتحان النهائى : « طالب مثابر . العمل دينه . يفضل الاستذكار عن كل شىء صموت يميل إلى العزلة يؤثر الإيجاز فى جوابه طماع معجب بنفسه » .

لم تكن حياة « نابليون » فى ڤالانس أسعد حالاً عن أيامه فى المدرسة .

فكان يتقاضى راتباً ضئيلاً قدره ٢٢٤ ريالا سنويا في سبيل قيامه بعمل شاق .

فتش « نابليون » عن المرأة لتكن واسطته فى سبيل الرقى فتعرف بمدام «كلوبير » صديقة الكثيرين من ذوى المكانة والنفوذ . يبدأ « نابليون » يتأنق فى ملبسه ويتكلم برقه حتى يكسب محبة مدام « كلوبير » .

وتعرف أيضا بمدموازيل « ميون دسبلاس » التى كانت تحبه وشجعها على ذلك حسن طالعه وزلاقة لسانه وما كان ينقصه إلا تعليم الرقص .

وفى سنة ١٧٨٥ م توفى والده ، وأصبح هو العائل لأمه وأخواته فزادت عليه المسؤولية .

وصادف أن مرض حينئذ فغادر فرنسا إلى « قرشقه »بأجازة ١٥ شهراً أخذ ينظم فيها شؤون عائلته ، ويفكر فى مستقبل إخوته ، فالحق أخاه «لويس » بمدرسة حربية فرنسية .

ولما انتهت إجازته رجع إلى فرقة « أوكسون » وهنا يقول نابليون أنه كان ينام ست ساعات ويأكل دفعة واحدة فى اليوم ويستبدل ملابسه مرة فى الأسبوع .

وقف « نابليون » فى أوائل المنحدر ، فلم يهو فى شرك الهوى وقد كتب عن الحب وهو فى « اوكسون » فقال « انى أرى ضرر الحب أكثر من نفعه فهو ضار بمصلحة المجتمع وسعادة الفرد ولعل الذى صرف « نابليون » عن اشتغاله بالحب فى ذاك الوقت وفاة والده وثقل عبء المسؤلية عليه مما صده عن هذا السبيل .

وفى مايو سنة ١٧٩١م ، رقى « نابليون » إلى رتبة ملازم أول والحق على الأثر بفرقةالمدفعية الرابعة .

شاهدنا ما جبل عليه « نابليون » من ميل إلى الحرية فلامراء فى أنه يقدس فكرة الثورة ورحب بها فاندمج فى سلك جمعية أصدقاء الدستور ككاتم أسرارها ، وله فى تلك الجمعية من الخطابات ما حفظها له اعضاؤها ويقولون أنها مملوءة حماساً مثيرة للنفوس مبعثة إلى الثورة .

إلا أن رجلا حـربياً « كنابليـون » يجب إلا يظهر بهـذا المظهر . فـتربيـته العـسكرية « لاتلائمهـا الفـوضى وارتكاب الجرائم » تحـقـقت تدريجيـا من حماسه وتشبعه الشديد للثورة .

وقـد سبـبت له الفكرة الأولى معـاكسة رؤسـائه ورفاق له نذكـر منهم «الشفاليه ديدوفيل » فاضطهده اضطهادا شديداً .

ولما أصبح « نابليون » إمـبراطورا لفرنسا لم يجز « ديدوفيـل » كما كان ينتظر . بل أوعز إليـه أن يرجع إلى وطنه ليشغل إحدى الوظائف الـكبيرة فى الجيش الفرنسى .

وقعت البلاد فى ظرف سيىء فأحاطت بحكومة فرنسا الأخطار الجسام . فرأى « نابليـون »من واجبه تعـضيد حكومـة « اليعاقـبه » لدفع تلك الأخطار التى طفقت تهدد البلاد فعين عام ١٧٩٣م قائداً للمدفعية فى حصن « طولون» و « لنابليون » الـفضل فى اذلالها واخـضاعهـا فقد أتى بما يشـكر عليه رغم اعتصام المدينة بمعونة الإنجليز والأسبان .

وفى سنة ١٧٩٥ م. وقعت فتنة بمدينة باريس فتـمكن نابليون بهمته من اكتساحها ونجح فى دفاعه عن المؤتمر .

فكانت تلك الأعمـال الجليلة التى قام بهـا ذلك البطل وتعرفه « بجـوزفين بوهارنيه » وبزواجه إياها سبباً فى تعيينه قائداً للحملة الايطالية .



الفصل الثانى

غرام نابليون ـ حياته الزوجية

لقد كـان لنابليـون ميل إلى النســاء الرائعات الجـمال شأن كل فـتى فى عنفوان شبــابه ، ولقد كان من أطواره استرســال إلى الأسى نجم عن تقلبات الحدثان وما صادف من صعاب .

قال « تورين » فى مذكراته عنه « إنه يميل إلى الزواج مـيلاً شديداً دفعه إلى أن يغبط أخاه جوزيف حـين تزوج بالآنسه « دزرى كلارى » ولقـد قال : « ما أسعد الشقى جوزيف أنه متزوج وفى سعادة يغبط عليها » .

كانت دزرى ابنة تاجـر شـهير ، ولطالما فكر « نابليـون » فى الزواج منها. كانت قرة عينه ومهجة فؤاده يحبها حباً تأصل فى شغاف قلبه .

على أنه لم يك واثقا بحـبها له فلقـد كتب إلى أخيـه يوم كانت « دزرى » معه فى جنوه « ان دزرى لا تكتب إلى منذ سافرت إلى جنوه » .

وأمل « نابليـون » بعد عـدة أيام أن يرتحل إلى « نيس » فكتب إلى أخـيه يقول « سوف أراك وأرى دزرى إذا سافرت إلى نيس » .

وفى اليوم التاسع من شـهر اغسطس كتب إلى أخيه بعـد أن جاءه كتاب من « دزرى » وأظهر رغبته فى الأقتران بها .

ولقـد توالت رسائله إلى أخـيه فى هذا الشـأن ولكن اقتـرنت « دزرى » أخيراً « ببرادوت » ووضعت على رأسها تاج أشبرج بدلا من تاج فرنسا فهى لم تكن تشاطر نابليون عواطفه المتوقدة وحبه المبرح .

وحدث يومـا أنه كان منشـرح الصدر طروباً فأخـذ بيد مـدام « تاليان » يقرأفـيها نصـيبهـا وما قدر لهـا فى المستقـبل وبدأ يتدفق من فيـه سيل من الفكاهات ليزداد سرور الحاضرين فبـدا للعين فى مظهر يخلب الألباب ويأخذ بمجامع القلوب .

فلقد كانت تلك السيدة بارعة الجمال نادرة المثال تشملها النعماء وترفل في حلل الهناء . بينا ترى العين « نابليون » ضئيلاً نحيلاً معروق لحم الوجه يرتدى ثوباً عسكرياً ويسترسل شعره كما كان يفعل أجداده السالفون .

وهناك سرب من النساء الرائعات الجمال جالسات ينظرن ذات اليمين وذات الشمال . يبتسمن عن لؤلؤ منضود ويكشفن عن سواعد كالمرمر وهن بارزات النهود مائسات القدود ومن بينهن امرأة هى جوزفين أرملة بومارشيه ذلك الزوج الذى مضى وتركها تندب حظها بأدمع سجام .

كانت جوزفين تجهل ذلك المستقبل المفعم سعادة والمليء هناء فلقد صارت بعد ثلاث سنوات أمبرطورة الفرنسيين وتلقت إكليل الزواج من يد البابا .

فهل كان « نابليون » حينما كان يستطلع كنه مستقبل مدام « تاليان » على علم بما أعدته له يدالحدثان وهل قرأ فى صفحة المستقبل أن سيصير سيد أرباب التيجان ... ؟!

جوزفين بوهارنيه

ولدت « جوزفين » عام ١٧٦٣م فى شهر يونيو وشبت وترعرعت بجزيرة أما رتينيك إحدى جزائر الهند الغربية .

ثم اقترنت بالمركيز « اسكندر بوهارنيه » القائد فى جيش الجمهورية ودقت المقصلةعنقه كما دقت أعناق كثير من الأثرياء أيام حكم الإرهاب فتركها أرملة دهراً كانت جوزفين على جانب من الرقه ذات صوت رقيق يأخذ بمجامع القلوب .

عذبة اللسان جمة المحاسن رشيقة القد فى مقدورها إخفاء ما نقص من تربيتها العقلية والدراسية فلم يكن لشخص أن يعيب عليها شيئاً .

وقع نابليون فى غرام تلك المرأة الأستقراطية التى زادت عليه بست سنوات ولم ينهه عن حبها فقر تشكوه ولا ولدان تعولهما .

لقد كان لصداقتها مع « بارا » ذى النفوذ تأثيراً على مشاعره .

كانت جوزفين رزينة مالكة لعواطفها غير أنها ما لبثت أن خضعت لتلك الشجاعة والثقة بالنفس وسعة العقل ، ولتلك النظرة الثاقبة التى كثيراً ما أوقعت الحيرة فى قلوب الأعداء .

ولقد يدور بخلدى أنها قد خشعت لذلك الحب المبرح فلعلها تنبأت أن الأيام تكن مستقبلاً زاهراً لنابليون .

اقترح « كرنو » فى مجلس الخمسمائة تعيين نابليون قائداً للحملة الإيطالية إذ أدرك ذلك الرجل المجرب قيمة الخطط التى وضعها نابليون فى صيف السنة السابقة ، وكانت السبب الأكبر فى انتصارات الثورة فى الخارج . قبل هذا الأقتراح فى اليوم السابع من شهر مارس سنة ١٧٩٦ م وبعد يومين من هذا التاريخ تم عقد الزواج .

كانت صالة السيدة « تاليان » سبباً فى تعارف نابليون « بجوزفين دى بومارشيه » وصار يزداد هيامه بها يوماً فيوماً حتى قيل عن عشقه هذا أنه أول عشق داخل قلب « نابليون » على ما كان يبدو منه .

كانت سنه وقتئذ لا تزيد عن سبع وعشرين ربيعا « وجوزفين » تبلغ الثانية والثلاثين فلم يحل ذلك دون تملكها لقلبه .

تحامل بعض المؤرخين فى وصفهم « لجوزفين » ويبدو لى أنهم جارون فى حكمهم فهى لم تحرم من نضارة الشباب بالقدر الذى يبدو لنا من تحاملهم حقيقة لم يضارع جمالها جمال مدام « تاليان » إلا أن سحنتها كانت كافية لاجتذاب قلب لم يطرقه الغرام كقلب « نابليون » .

ولقد وصف المؤرخون « جوزفين » بتوسط القامة وتناسب الأعضاء وقلة التكلف فى حركاتها وسكناتها ، ذات عينين شديدتى الزرقة وحاجبين كهالتين حول عينيها المتألقتين وكانت ترتدى غالباً ملابس من السندس الرقيق .

لاقى نابليون من أعدائه تحاملا كما لاقت شريكته فزعم أولئك المؤرخون أنه كان يرمى فى حبه لجوزفين إلى غرض الحصول على منصب رفيع بالجيش الفرنسى ، وهو القيادة العامة لجيش إيطاليا .

ولكن الأخرين من المعتدلين فى الرأى يؤكدون أنه أحبها حبا بريئا خلواً من كل شائبة .

ولدينا أمر آخر .

كانت فكرة الزواج ملازمة له منذ عام ١٧٩٤ م وبرهاننا قوله عن أخيه چوزيف بعد زواجه « أن جوزيف لسعيد » كما ثبت ذلك سيعه للاقتران «بدزرى كلارى » وبدليل رغبته فى الأقتران « بجوزفين » التى كانت تعول ولدين فليس بعجيب بعد أن رفضت دزرى الاقتران به أن يمد يده إلى يد أول امرأة شغل بحبها وقد مدتها إليه عن طيب خاطر .

يمكننا القول أن چوزفين كانت تعمل على استمالة نابليون إليها .

فالقارئ المدقق إذا اطلع على ما كانت تكتبه إليه والناقد المنصف إذا شاء أن يحلل ما كانت تشعر به نحو نابليون لاعترف بأن التوسل كان من جانبها لامن جانب زوجها .

وإليك رسالة كتبتها «لنابليون » فى أكتوبر سنة ١٧٩٥ م.

« مالى أراك وقد انقطعت عن زيارتى أنا صديقتك المحبوبة وقد علق قلبى بحبك فكان جزائى الأهمال ، لعلى اراك غدا فأطفئ من نار حبى المشتعلة فى فؤادى وأحادثك فى أمر يتعلق بمصلحتك أقبلك أيها الصديق » .

وقعت تلك الكلمات موقعاً حسناً لدى نابليون فلم ير مانعا من الضرب على هذا الوتر فكتب إليها يقول :

« إنى أستيقظ ولا أرى أمامى سواك لم تبق صورتك والليلة الساهرة التى قضيناها أمس سويا لحواسى شيئا من الراحة فما هذا الأثر الغريب الذى أحدثته فى قلبى ياچوزفين أى نادرة المثال لو رأيتك أى قرة عينى كاسفة البال مضطربة الفكر لتفطر فؤادى وزالت راحتى .

قبليني ألف قبلة . بل امنعيها ياچوزفين فإنها تحرق دمى » وفى شهر نوفمير عام ١٧٩٥م بدأ نابليون يتحبب إلى « جوزفين » ويفاتحها فى نية الزواج وظل يجتمع بها لهذا الغرض حتى عقد الخطبة الرسمية سنة ١٧٩٦م فى التاسع من شهر مارس ولقد راعى « نابليون » عواطف « چوزفين » فزاد على سنه سنة وأنقص من سنها أربع سنوات .

مرت چوزفين بخطيبها أمام منزل مستشارها « المسيو راچيدو » لاستشارته فى مسألة اقترانها « بنابليون » وقد سألت خطيبها أن يبقى بالخارج حتى تتفاهم فى مسألة سرية .

ولكن « نابليون » ساوره شك فأصاغ أذنه وسمع ما جرى بينهما من حديث . هو « ماذا تنوين عمله أتودين الزواج من رجل لا يملك شيئاً سوى سيفه وردائه العسكرى ماذا يدفعك للاقتران به ياچوزفين أنه رجل حربى صغير ماله من لقب ولا مستقبل ، خير لك الزواج بمتعهد يقدم البضائع فهو أليق منه فى نظرى » .

لم يظهر « نابليون » استياءه بل أضمره مع كظم غيظه وبعد ثمانى سنوات دعى « راچيدو » إلى حفلة قصر « التويلرى » ليرى ذلك الچنرال الذى ليس له من اسم ولا لقب .

وفى هذه الأثناء عين « نابليون » قائدا للحملة الإيطالية .

وفى ١١ مارس عام ١٧٩٦م سافر نابليون إلى معسكر الجيش الإيطالى وهو يتلفت نحو زوجته المحبوبة ..

وهناك فى ايطاليا بدأ بأعماله الحربية التى استمرت نحواً من عشرين سنة وكلها انتصارات وفوز للبطل القرشقى .



الفصل الثالث

« نابليون بعد الزواج »

لم يطل المكث « بنابليون » أكثر من يومين حتى أرسل لزوجته رسالة قال فيها « صديقتى ومعبودتى . أتحمل مرور الأوقات بثقل لبعدك عنى .

وقد تضعف قدرتى على احتمال هذا الفراق .

أنت نصب عينى وفى ذاكرتى صباح مساء .

أجهد مخيلتى فى تصور ماذا تصنعين .

وكم يحلولى أن أتخيلك طروبة طلقة المحيا .

وكم يقلقنى أن أتصورك حزينة مقطبة الجبين فهذا مايزيدنى حزنا على حزن . أرجوك مكاتبتى باسهاب لترضى خاطرى وتخفضى عن القلب بعض أتعابه وتقبلى آلاف القبلات ممن يحبك أصدق حب » .

لعل القارىء يسل بما أجابت « چوزفين » على تلك الرسالة المملوءة أسى ولوعة ووجدا وهياما قد يدهشك إذا علمت أن جوابها كان قصيراً لا يتجاوز سطرين ليس فيهما من كلمة ترضى خاطر محب وامق كنابليون تذكو نار المحبة فى فؤاده وينتظر لقاء ردا يطيب خاطره .

ياليتها اكتفت بما كانت تبديه لزوجها من الدلال والأنفة فى كتاباتها إليه .

بل تفتح خطاباته وتقرأ مافيها بتهكم على مسمع من حاشيتها ومعارفها وتختم قولها بان « نابليون » « غريب تبعث أعماله إلى الضحك » .

بينا كانت « چوزفين » على حالتها هذه كان « نابليون » يزداد لوعة ويتحرق حباً ويرجو لقاءها .

فكتب إليها يقول « أورثت عندى قلقا فأنام وأنا مشغول البال مرتبك الفكر .

فتبدو لى أحلام مخيفة فأفقدتنى الراحة وهى عندى أغلى من الحياة .

اغفـرى لى ما آتـيته مـن ذنوب تقولين إنك تحـببينى فلم لاتكـتبى عـشر صفحات فهى تسليتى وسلواى .

هل جئت بما يحزنك .

كيف أكفر عن هذا الذنب .

لقد ذهب حبك بعقلى فلن أرى إليه سبيلاً » .

وكتـب أيضا « إن مـاعندى من الألم لايطيبـه الدواء ولن أنل شفـائى إلا برؤيتك فأضمك ساعتين إلى قلبى ثم نموت سويا » .

قلت إنك مريضة فمن يعنى بك ويقوم بتسليتك .

أظنك أرسلت فى طلب (هورتنس) .

كم أحب هذه الفتاة .

كيف لاوقد قيل لى أنها تنزل السلوان على قلبك » .

سأظل قـلقاً حتى يرد إلـى خطاب مسهـب يعرفنى عن مـرضك وإن كان الأمر من الخطورة بمكان سأسرع للسفر إليك .

كيف لاولست أفكر فى امرأة أخرى غيرك .

فأنت دون النساء تروقى فى ناظرى للطفك وظرفك وجمالك.

لك كل ما أملك فروحى مقيمة فى جسمانك فاذا مت ، مت أنا معك . »

تتلقى جوزفين تلك الرسائل وهى ساكنة فما حاولت أن تجيب « نابليون» على طلبـه بل أظهرت غـاية من البرود . وإذا ردت فـفى رقيم يحـوى أسطرا قلائل تشمل أعذارها المنتحلـة من مرض أو حمل أو غير ذلك مما أدخل الريب فى قلب « نابليـون » يدلنا على ذلك مـا كتـبه إليـها فى رسـالة تلك العبـارة خاتمتها » .

« وليعلق بذهنك؛ أنى لا أسـتطيع أن أرى لك حبيبا » غـير أن « نابليون » لم يثق الثقة كلها فى نفور زوجته من لقائه .

فقد تلت الرسـالة السالفة رسائل عديدة يستنبط من خـلالها القارىء أن حب جوزفين لم يتزعزع فى قلب « نابليون » وإليك بعض ما كتبه :

« شـريكتى المعـبودة . علمت بمرضـك فمـرضت من أجلك وسـتظل تلك

الحمى مستمرة فى جسمى حتى أستلم بريداً خطته أنامل سيدتى ومولاتى » .

وكتب إلى « كارنو » إنى أقدم لك جزيل شكرى لتوليتك العناية بقرينتى فى ظرف مرضها .

فقد خدمت وطنك بخدمتها لأنها وطنية مخلصة وأنا هائم بها » .

ومما كتبه إلى أخيه « چوزيف » « مالى وقد أحاطنى سرب من الأوهام المخيفة مذعلمت بمرض امرأتى » .

طمئنى ياچوزيف يامن يهمنى أمره بعد « چوزفين » ـ بما عليه «چوزفين » .

أنك ولا أخالك إلا عالماً بمبلغ حبى الشديد لأول امرأة أعبدها : مرضها يزيد كربى وآلامها تورثنى اليأس .

وإذا تحسنت صحتها دعها تزورنى فقد عظم شوقى إليها واشتد .

لعلها تربض يا چوزيف فيما تعلل ذلك .

أما إذا كانت لا تحبنى فأنى لاأريد البقاء إذ مللت هذا العالم كيف لا أرد ذلك وبهجر جوزفين أهجر سعادتى وهل تجدى تلك الظواهر اللامعة لا .. لا..

ولقد كان الرقيم الآتى آخر كتاب خطه نابليون مظهراً فيه قلقه وقد جلس ليتخيل طيف چوزفين وماهى عليه من جمال وكان شؤما عليها .

إذ بعده لم تحظ بما كانت تلقاه من رسائل « نابليون » تلك التى تفيض حبا ووجداً .

« لست مستريح البال ولا هادىء الخاطر .

فأنى أود معرفة ماذا تصنعين .

كنت فى إحدى القرى فوجدت بحيرة راقنى منظرها فجلست عند ضفتها على نور القمر الفضى وكنت أكرر باستمرار اسم چوزفين .

أقبلك ألف قبلة مقدار ما فيها من ضرام .

مقدار مالديك من برودة .

الفصل الرابع

بدايه الشك وطلاق جوزفين

بدا لنا مما سبق ذكره أن شـيئا من القلق بات يخيم على نابليـون فتوالت عليه الوسـاوس وكثـرت عنده الشكوك مما جعله يفكر فى أن هـناك سراً فى الأمر .

لم يحمل نـابليون إلى التفكيـر فى ذلك إلا وجود أدله جليـة يلقيـها على مسـامعه نفر ممن يحـيطون به ويرقبون سـير زوجته وأن تكن چوزفـين قد تظاهرت بالغيرة فـيما أرسلته إليه إلا أنه لم يـكن إلا تحويلا لافكاره وتبديداً لظنونه .

وصل إلى نابليون خبرماكاد يسمعه حتى سلم بصدقه :

فقـد كان جمـهور من الضبـاط الشبان يحـيطون بچوزفين فى مـسكنها بميلان وقـد غالوا فى أكـرامهـا والتزلف إليـها نخص بالذكـر من بين هؤلاء ضابطا شابا يدعى هيبولت شارل امتاز بحسن الهندام والأهتمام بنفسه حتى يبدو جمـيلا فى اعين الفتيـات كان نحيف الجسم اسود الـشعر حنطى اللون حلو الحديث لكثرة لطائفه ونكاته .

فكانت تلك السجايا والأوصاف باعثة على وقوع چوزفين أسيرة لحبه .

ولما انتشـر هذا الخبـر بين رجال الجيش تألم نابلـيون أشد الألم فـعزل الضابط الشاب وبجانبه فئة ممن شاركـوه في القيام بعملية التزلف والملاطفة لزوجة رئيسـهم وقائدهم الأكبر فى فرصة غيابه .

لعل القارىء يوفق إلى الأسـباب التى حملت چوزفين على عـدم الأكتراث بنابليون ومقابلة خطاباته الملتهبة ببرودها الشاذ .

ذلك جلى وقد رأينا ما كانت عليه چوزفين .

نعم كانت فى محيط واسع جـامع لضروب الملذات وشتى المسرات وليس

عليها إلا انتحال عذر فى ردها تؤجل به سفرها إلى حيث كان نابليون حتى انه عمد إلى كتابة تلك الرسالة فى ١٧ سبتمبر :

چوزفين إنك لشنيعة .

أكتب إليك كثيراً ولم تكتبى إلى إلا قليلا .

أثبت أنك طائشه بل وإنك خداعة تخونين عاشقا متيما .

هل تحملى بالمتاعب والآلام تكن سببا فى ضياع حقوق محب مثلى ؟ ألا ما لذة الحياة .

وقد أبت چوزفين أذ تؤكد حبها لى .

وكتب إليها :

فيما تمضين يومك .

وما الحائل بينك وبين مكاتبة مغرم طيب القلب .

ما اسم هذا الحبيب الجديد الذى نافس « نابليون » فى حبه ..... حذار .

حذار « ياچوزفين » فسأقرع الباب فجأة ذات ليلة ... وسأجتهد فى ملاقاتك قريبا وانهال عليك بقبلات حارة وملتهبة كجو خط الأستواء »

وكتب أيضا.

« طيشك ولد فيك عدم اكتراثك .

فأصبحت « ونابليونك العزيز » لا يعنيك .

ماأضعف حبك فسرعان ما هب وسكن .

لا تجعلى لخطاباتى من أثر فى نفسك فسيرى علام أنت عليه من ملذات وملاهى إذ لك السعادة وحدك ولزوجك البؤس وسوء الحظ دون سواه »

وكتب إليها فى رسالة أخرى .

« إن زوجا لا تميلين إليه لا تهتمين بشقائه أو سعادته وإنى لمخطىء أذا طلبت منك أن تحبينى بقدر حبى لك فإن فعلت لكان مثلى مثل رجل يطلب أن يكون وزن القطن كوزن الذهب .

لعلى لا أملك من الجاذبية والجمال ما يجذب قلبك .

ألست مستحقا إكرامك واحترامك ياچوزفين يامن يلتهب فؤادى بنار حبها ولا يرضى بها بدلا .

أودعك أيتها المرأة المعبودة أودعك ياچوزفين .

دفن « نابليون » حزنه بين طيات فؤاده وستر الأمر حفظا لمكانته وصيانة لشرفه لدى رؤساءالدين والشعراء الذين كان يطربهم كل يوم ضرب من النصر جديد .

لم يكن حب « نابليون » حائلا دون عقاب « چوزفين » فحسب وكان لما سبق دخل كبير .

وإليك قصة طريفة تدلنا على أن أمبراطور الفرنسيين وسيد المعارك لم يستطع أن يخرج كلب « چوزفين » من غرفتها وقد أراد النوم .

ويقول أن هذا الكلب (فورتنيه) كسيد منافس له حب « چوزفين » . يشاطره فراشها.

ولقد أراد ليلة أن يخرجه فقالت له زوجته « تخير أحد الأمرين إما الرضاء بالنوم معه أو تركى ونومك فى محل آخر » ويدهشنا رضوخ نابليون لحكم امرأته إذ يقول « ولكن اضطررت أن أقبله معى » فانظر أثر الحب كيف يطأطىء هامات الجبابرة العظام .

كان نابليون فى ذاك الوقت امبرطوراً لفرنسا يتلألأ نجم سعده فى سماء العالم.

وچوزفين تتمتع بجده وتحظى بسمو لقبه إلا أنها لم تكن تعرف للاقتصاد نظاما . فكثيراً ما كان تبذيرها مدعاة لتكدير صفاء الأمبرطور وسببا فى شكايته لتجاوزها حد الصواب والحكمة فى بذل المال .

أثر كل ذلك فى نفس نابليون حتى كان دافعا له إلى القول فى مجلس الدولة « أن النساء لا يشتغلن إلا بالملابس والملاهى أفليس من الواجب احترام المرأة لرغبات زوجها فلا تجالس من لا رغبة له فيه »

بدت الغيرة فى نفس چوزفين بازدياد مجد نابليون وسعده يثبت ذلك ما ظهر على اسارير وجهها عندما رأته يحادث المغنية برانشوا فى الأوبرا وليس لها من ضروب الجاذبية إلا صوتها الرنان وعندما طرق سمعها ميله إلى أحدى ممثلات مسرح « الكوميدى فرنسيز » وكانت فتاة بارعة الجمال كثيرة

اللطائف غـير أن ذلك لم يبد جليـا إلا عندما سـافر نابليـون عام ١٨٠٧م إلى بولونيا .

وقد زاد فى شكهـا ما كانت تعـرفه عن شـهرة الجـمال البولونى وتغـير زوجها عن حالته الأولى .

تبدلت الحـال وأصبحت چوزفين تلح على زوجـها أن يسمح لها بالـسفر إلى بولونيا .

أليست هى المرأة التى كانت تخلق الحيل وتوجد الموانع لبقائها فى باريس وزوجها يمطرها وابلامن الرسائل يرجو لقاءها وهو يحرز النصر تلو النصر فى إيطاليا .

وقد عمـدت إلى استطلاع حظها فى ورق اللعب لترى أقدر لهـا السفر أو عدمه .

غير أن مـا كتبه نابليـون إلى چوزفين وقتئذ من رسائـل تحوى الكلمات السلوة الدالة على الوداد والحب حـتى لا يساورها الشك كـانت فى الحقيـقة تحوى أسبابا عـديدة لتحول دون قدومها إليه فـمن هذه الرسائل : « إنه كلما عظم المرء كـثرت مشـاغله فزال اسـتقـلال إرادته » .كانت تلك الرسـائل وما تحويه من اعـذار مضـرمة لنار غيـرتها إذ خـشيت تزلف الحسـان بين يديه ومغازلته البولونيات الجميلات .

لم يعرف « نابليون » لذة الحب الخالص المتبادل إلا فى « بولونيا » .

تعرف هناك بحسناء تدعى مدام واليسكا جمعـته بها حفلة راقصة حوت زهرة نساء « بولونيا » وكانت بارعة الجمال صـبوحة الوجه شقراء واضحة الجبين .

هام « نابليون » بحب مـدام واليسكا » وفى اليوم الـتالى استمـال رجلاً من كبار حاشيته ليأتيه بها .

فامتنعت أولا أنفة ودلالا كما هى عادة ربات الجمال وذوات الحجال .

وبعد أخذ ورد أقنعها بالمجىء فيما بـين الساعة العاشرة والحادية عشرة مساء .

وصف « كونستان » لقاءهما فقال « إن نابليون كان تارة يقعد وتارة يمشى وقبيل وصولها بقليل كان قلبه كقلب تلميذ ضرب أول ميعاد لحبيبته فأخذ يخفق وصبره ينفذ .

وكان يسأل دائما عن الوقت وبينا هو على تلك الحال وإذ بالمحبوبة البولونية قادمة إليه صامتة ممتقعة اللون .

تترقرق الدموع فى محاجرها وظلت تكشف له عن أسرارها القلبية حتى دقت الساعة مؤذنة بحلول الساعة الثانية صباحا ثم ودعت « نابليون » وهى مبللة الأجفان بالدموع وظلت توالى زياراتها إلى أن سافر الأمبراطورصحبة جيشه لغزو الروسيا .

تعددت كتب « چوزفين » إلى « نابليون » تطلب السماح منه بالسفر إلى مركزه فكان يجيبها ناصحا لها بالكف عن هذه الأمانى محاولا اقناعها بأسباب عدة من بينها المسافات القصية وسوء حالة الجو وماشاكل ذلك .

تفطر قلب « چوزفين » وتحرج صدرها فاستولى عليها الهم والغم وزفرت العبرات حتى وصل ذلك إلى مسامع « نابليون » فكتب إليها يقول :

« بلغنى أنك تبكين دواما فما أقبح عملك هذا . أطلب منك التمسك بالحزم والثبات وأود أن تكونى سعيدة وأن تعودى إلى باريس باسمة الثغر » .

لقد أضحكنى قولك « أنى اتخذت لى زوجا لأصحبه فى حله وترحاله » لأنى أرى أن المرأة لرجلها والرجل للوطن .

ولقد ثبت بالبراهين القاطعة أن حب مدام و « اليسكا » لنابليون استمر بعد سفره إلى معسكر الجيش . ولم يحمل نابليون إلى حبها جمالها فحسب . بل كان هناك سبباً آخر أثر تأثيراً خطيراً فى شأن الطلاق وهو أنه قادر على الأستيلاد بعد أن كان يشك فى سبب العقم أمنه أم من چوزفين .

ولما مال نجم نابليون إلى الأفول باعتزاله فى جزيرة إلبا تخلى العالم عنه.

فأثر ذلك فى نفس مدام واليسكا وذهبت إلى الجزيرة لتروح قلبه وتعزى نفسه فصدق ما قاله عنها نابليون « إنها لملك كريم » .

وردت الأخبار المشينةبسمعة چوزفين لسوء سلوكها ونابليون بجهة العريس صحبة جيشه وقد عارض أخاه چوزيف لما ألح عليه فى طلب الطلاق بدليل قوله :

« ليس الطلاق بهيِّن فالأمر فوق طاقتى ان ضلوعى تحوى بينها قلب إنسان وما كانت أمى نمرة فليس من العدل أن أرمى بزوجتى فى البؤس والشقاء »

ظل نابليون مظهراً هذا الشعور الشريف معاملا چوزفين بحالة حسنة .

إلا أن توالى المؤثرات حملته على تقريره الطلاق وكان ذلك فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٩م .

اضطربت چوزفين لهذا النبأ وأغمى عليها عند سماعها بطلاقها فكان منظرها مؤثراً أيما تأثير . أشار الأمبراطور إلى البقاء وحده صحبة الأمبراطورة وبعد برهة سمعت صيحات چوزفين ترن فى الردهة مما أربك الحاجب بالباب وظن أن الأمبرطورة قد أصيبت بضر .

فتح نابليون باب الغرفة وسمح لأحد رجال حاشيته يدعى دى بوسيه بالدخول وغلق الباب .

هال دى بوسيه ماقد رآه .

رأى الأمبراطورة ملقاة على السجادة تبكى بكاءاً مراً وقد قالت بصوت مختنق «لا . لا . لا يمكننى أن أعيش بعد هذا » .

سأل الأمبراطور بوسيه أن يحمل الأمبراطورة إلى غرفتها الخاصة حتى يعنى بها .

فحملها بين ذراعيه وحمل نابليون مصباحا .

ولما كانت درجات السلم ضيقة خشى دى بوسيه عاقبة الوقوع فساعده الأمبراطور بحملها من ساقيها بكل عناية وقد شد دى بوسيه على الإمبراطورة بكلتا ذراعيه .

وظل الأمبراطور مضطربا حتى كلمت چوزفين دى بوسيه بصوت خافت وقالت « أنت تضغطنى كثيراً » إلا أن شدة قلقه وتقطع نبرات صوته وتبلل

مآقيه بالدموع دلت دلالة جلية عـلى شدة اضطراب الأمبراطور مما دفعه إلى الأرسال فى طـلب طبيب القـصر و (هورتنس) ابنة جـوزفين ومـستـشـار الأمبراطورة الخـاص (كامباسريس) ومـا كان يوم ١٢ديسمبـر حتى مثلت چوزفين إلى الشفاء تماما .

وفى مساء اليـوم الخامس عشر من شـهر ديسمبر عـام ١٨٠٩م اجتمع جمع كبـير من عظماء الدولة وأعضـاء الأسرة الأمبراطورية لتوقـيع نابليون وچوزفـين عـقـد الطلاق على مـرأى منهـم وكم كـان مؤثـراً منظر نابليـون والدموع تسيل على خديه . وچوزفين ويدها ترتعد لهول مالاقت .



الفصل الخامس

الزوجة الثانية ـ مارى لويز

ما لبث نابليون بعد طلاق چوزفين ان استطلع رأى أمبراطور النمسا فى شأن زواجه بابنته مارى لويز حتى يحظى بالحصول على سلالة أمبراطورية والتمتع بزوجة من أعرق الأسر المالكة مجدا فى أوروبا .

تبودلت المفاوضات على صورة ودية فى المبدأ وسرعان ما اتخذت طريقا رسمياً .

ولم تبد چوزفين أى أثر يحملنا إلى القول بأن الزواج كان على غير ارادتها بل نجدها وابنتها (هورتنس) تشتركان فى الأمر .

وفى ٤ مارس عام ١٨١٠ تم الرضا وسافر (برتييه) موفدا من قبل نابليون قاصداً ڤينا لتقديم الهدايا النفيسة التى جادت بها نفس نابليون لتقدم للعروس وقد قدرت بمبلغ ١,٩٠٠,٠٠٠ من الفرنكات من بينها صورة لنابليون وقد رصعت بالماس الخالص .

وفى ١١ مارس أقيمت حفلة الزفاف بين مظاهر العظمة والأبهة فبرحت مارى قصر أبيها فى موكب فخم تحت إشراف أمير من أمراء الأسرة المالكة وصحبة اثنتى عشرة سيدة من سيدات القصر .

ولنصف الآن كيف تلاقى العروسان ، وكيف تلاقى عصامى وضيع بابنة بيت من أقدم البيوت المالكة فى أوروبا .

أقيم سرادق للامبراطور يقابله آخر للامبراطورة وأقيم ثالث بينهما تلاقى فى مربع فيه العروسان .

تقدم نابليون نحو زوجته المنحنية ونهض بها ثم قبلها ورافقها إلى مركبة ملكية ذات ستة مقاعد حيث جلست والأميرات حولها .

هذا وصف مجمل ليوم الزواج وقد روعيت فيه التقاليد النمساوية جارية على التقاليد الأمبراطورية ولو تصورنا فى الذهن كيف دقق فى تحقيق خطة

الزواج لعلمنا مقدار معاناة نابليون فى سبيل حصوله على القبلة الأولى من كريمة امبراطور النمسا .

أظهرت مارى فى أيامها الأولى سلامة الطوية وحسن المعاشرة مما ساعد على تأسيس بيت يسوده الحب . كانت عيشتها راضية فرفلت فى حلل الرغد والهناء يثبت ذلك ما بعثت به مارى إلى اثنتين من أصدق الناس إليها تقول : «طلبتما لى الهناء فاستجاب ربى دعاء كما وأرجو أن تحظيا بما حظيت به » .

وفى يناير عام ١٨١١م ، كتبت لاحدى صديقاتها « فى مقدورك تصور ما نحظى به من ملاذ وملاهى فى مدينة عظيمة كباريس » .

وفى يونيو كتبت للصديقةعينها « إن حزنى لمفارقة نابليون يكدر صفاء سعادتى التى اتمتع بها وسط حاشيتى ولن أكون سعيدة إلا أذا كنت على مقربة منه اتمتع بطلعته » .

وكتبت أيضا « لن أكون قريرة العين حتى أرى الإمبراطور فالله اسأل أن يقيك مثل هذا الفراق فانه على القبل اليم شديد » .

وفى ٢ أكتوبر سنة ١٨١١م ، كتبت تقول «لى أمنية واحدة أسال الله تحقيقها عما قريب . هى عودة الأمبراطورفإن وجود ابنى فحسب لا يكفل سعادتى لحظة واحدة » .

كتبت تلك الرسائل فى أزمان متباينة لصديقتين من رفيقات الصبا تشكو لوعتها وتشرح مقدار حبها للامبراطورفلو حكمنا الحكم العدل لدحض ما زعمه خصوم نابليون عن اساءته معاملتها اللهم إلا إذا شاؤوا انتحال الأعذار ليبرروا خيانة مارى لويز لزوجها عند ما كسر من موقعة (ووترلو) .

كيف لا ندحض اختلاقهم أليست مارى لويز هى القائلة « إن الأمبراطور كان حسن المعاشرة كان يظهر لى كل إكرام وإعزاز » فلو اقترف نابليون فى معاملتها إثمًا لما شهدت له تلك الشهادة وقد كان من مصلحتها قلب الحقيقة حتى تخفف من شناعة الخيانة التى ارتكبتها بعد سقوط نابليون .

بالغ نابليون فى إكرام مارى لويز فكان يعنى بها عناية شديدة .

ويشملها بنظرات الحب والسرور ويفاخر بها كل انسان وقد بلغ من حبه لها أن أمضى الثلاثة الأشهر الأولى لزواجه وهو ملازم لها ليل نهار واذا تركها فليقوم بأعمال هامة .

هذا فضلا عمـا كان يتوسل به ذلك الأمبراطور ليقف على حقيـقة زوجته مما يحملنا إلى القول بأن نابليون كان أفضل زوج .

فليس فى وسع بعل أن يبدى من لطف المـعاشرة ورقة المعاملـة اكثر مما ابداه نابليون .

بلغ من شدة حب نابليون لمارى لويز أنه سأل البرنس مترنيخ فقال «أنت صديق الأمبراطورة وهى لاتخفى عنك شيئا .

أريد أن تستفسر لى عما يجول بخاطرها بحرية تامة ولما تلاقيا فى اليوم التالى فاجـأه مترنيخ بالجواب الآتى « أن الإمبراطورة لا تشـعر إلا بالسرور فتقول أنها سعيدة ولا تشكو شيئا » .

ظل هذا الشعور ملازما نابليون فى سلمه وحربه وراحته وكربه .

فلم تؤثر عليه المعامع ولا نازلة الروسيا التى نزلت على نابليون وقتئذ بل لانغالى إذا قلـنا أن شوق الأمبـراطور كان شديداً حـاراً وقد كـان يخشى أن يطرق سمعها خبر انخذاله فكتب لكامبا سريس المستشار الأمبراطورى الأكبر عام ١٨١٣م ، يقول « يجب على الوزراء أن لا يخـبروا الأمبراطورة بما يورث لها قلقاً أو حزناً » .

ولما عقدت دول أوربا حلفاً ضد نابليـون عقب الحرب الروسية التى خاب أمله فيها .

ثارت فرنسا وقامت فيها المعارك والحروب مما ذهب بعقل نابليون خشية وقوع الأمبراطورة والدوق ريشـتادت فى قبضة العدو فكتب الرسـالة التالية «إنى أوثر ذبح ابنى على أن يربى فى بلاط النمسا ويظهر لى أن الأمبراطورة على هذا الرأى » .

قال نابليـون لامينه بعد أن خـذل وتنازل عن عرش فرنسـا فى فونتنبلو واضطر إلى السـفـر إلى جـزيرة البـا وقد ودع حـرسـه ذلك التـوديع المؤلم المشهور « إن إلبـا جزيرة صغيرة لا تليق بمثلى ولكن يمكننى أن أعـيش فيها سعيداً مع زوجتى وابنى » .

وعند مـغادرته فـرنسـا كتب إلـى مارى يقـول « أودعك أيتـها العـزيزة فاصبرى وصابرى واعتمدى دائما على زوجك وشجاعته وصداقته لك » .

الإمبراطورة الخائنة

وصل نابليون إلى جـزيرة إلبا ومكث بها أياما ولم يتلق خـبرا من مارى لويز فعمد إلى التوسل لبعض رفقائه فى فرنسا لحملها على مراسلته والسفر إليه .

غيـر أن هذا لم يجد فـتيـلا فكانت توجه مـارى إلى المتوسلين إليـها أذنا صماء .

ولما ضاقت بنابليون الحيل رجا دوق (تسكانى) خال مارى لويز ليكون واسطة بينه وبين ابنة أخـته تلك التى باتت لا تعبـأ بتوسل نابليـون ورجائه وأصبحت تظهر قلة الأكتراث لمصابه .

غير أن نابليـون حاول عبثـا فى لقائها أو مراسلتهـا ولم يحظ إلا بمقابلة تلك البولونية الحسناء التى كتبنا عنها آنفا .

تركت مارى فرنسـا كى تحمى نفسها وابنها الدوق رشـستادت فى بيت أبيها إمبراطور النـمسا بحجة أن الحلفاء يزحفون على فـرنسا مما يهدد حياة ساكنى القـصر الأمبراطورى ويجـعلها فى خطر غير أن نابليـون لم يعر هذا التفاتا لسلامة طويته وحسن نيته فمظنة الخيانة لم تكن لتخطر بباله .

غـيـر أن للامور رواســى ونهايـة تقف عندها فلمـا بلغ فـســاد قلب تلك الزوجة التى جمعت بين النذالة والخيانة حداً قصيا .

وأصبـحت ولا يسرها الا كـسر الجـيوش الفرنسـية وقـهر الأعـداء لها وأصبحـت لاتعبأ بالألسنة اللاذعة التى تناولت عـرضها وأصبـحت ولاتذكر شيئا عن ذاك البطل التى عزت بعزه وحسدت لإذاعة صيته ونعمت بنعمائه .

نعم أصبـحت ولا تحس إلا إحساس أمـيرة نمسـاوية معادية لفـرنسا لا امبراطورة فرنسية ترجو النصر للفرنسيين .

جاءت النشـرة الرسمية متـضمنة أخبار تـفوق الأعداء (أى دول أوروبا المتحـالفة الزاحـفة على فـرنسا) لكثـرة عددهم وحـسن نظامهـم وإن الفوز معقود بلوائهم .

وإن جنود الحلفـاء تسحق الجـنود الفرنسـية سـحـقا فلمـا وصلت تلك الأخبـار التى تؤلم امبراطورة فـرنسية (لو كانت من الفـرنسيين أنفسـهم) قالت لمن حولها « إنى لمبتهجة مع الجـميع بالأخبار السارة التى تتضمنها تلك النشرة » .

تقول مـارى لويز أمثـال تلك الأقوال ويعـتذر نابليون لهـا فيـقول « من الصعب على أن أسلم بتصـديق ما يقال لى عن مارى لويز فلاحـرج عليها أن بدا منها شىء .

أليست مارى ضحية أيام غيابى فى جزيرة إلبا .

نستخلص مما سبق عن حياة نابليون الزوجية .

أنه تزوج بخـائنتين غـير أن مارى لويـز تعتبـر المثل الأعلى فى الخـيانة والخباثة . إذ عرفت كيف تستـعمل المداراة فى إخفاء ماانطوت عليه من رذائل ولكن سرعان مـا سترسلت إلى سجيتـها الطبعية عند ماخـذل زوجها وأمنت سطوته .



مولد الدوق ريشستادت

وفى ٢٠ مارس عام ١٨١١م حوالى الساعة الثامنة صباحا ولد الوارث الأمبراطورى الذى طالما اشتاق إليه نابليون ليرث العرش بعد أبيه وليخلف سلالة امبراطورية يذكرها له التاريخ بعد مماته ويتوج اسمها بلقب (العائلة البونابرتية) .

أصدر نابليون أمراً يقضى بطلق ٢١ مدفعاً إذا كان المولود أنثى أو ١٠١ إذا كان المولود ذكراً .

احتشدت الجماهير على أرصفة الطرقات بقلوب خفاقة وأعناق مشرأبة . يعدون طلقات المدافع طلقة طلقة بصوت جهورى مسموع .

وكم كان مبلغ يأسهم لما غاب صوت الطلقة الثانية والعشرين . وكم كان مبلغ فرحهم وحماسهم لما دوت فى آذانهم فماجوا فى الطرقات والميادين يصيحون فرحين .

وكانت الأيام العشرة التاليه لهذا اليوم كلها فرح وأعياد وولائم تسقى فيهاالمدام وتسمع فيها الأنغام والسوقة يغنون الأناشيد .

كل ذلك من أجل ولادة ملك روما ولما سمعت چوزفين دوى المدافع دعت صديقاتها ومن يحيط بها من بنى عشرتها وقالت لهم « واجب علينا أن نشارك الشعب فى أفراحه .

إن ولادة ملك روما اليوم عيد لدينا فسأقيم حفلة رقص جامعة لكل الطبقات فيشاركنا السوقة فى أفراحنا » وقد أخذ ملك روما خلسة بدون علم مارى لويز إلى چوزفين وقد طلبت رؤيته .

كانت ولادة ملك روما صعبة أليمة مما جعل الطبيب المولد يخشى على حياة مارى وأنه ولا محالة ينتظر رأى نابليون بمن يضحى إذا ألجأته الضرورة .

ولكن قلب الزوج تغلب على قلب الامبراطور في ذاك الموقف الحرج فأجاب الطبيب بقوله فكر أولا فى الأم » فوضع حياة زوجته فوق حياة ابنه وفلذه كبده .

وكانت الصعوبة فى الولادة ظهور الطفل معترضا مما زاد فى تأثر نابليون فكنت ترى وجهه ساعة العملية التى اقتضتها الحالة أصفراً ممتقعا .

طفحت كأس حبوره لما طارت البشرى إليه بنجاة مارى أسرع يقبلها ويضمها إلى صدره ثم تركها وأسرع إلى طفله مدفوعا بصرخته وأخذ يقبله فى عينيه وخديه .

وأوصى الطبيب بصحبة الأمبراطورة حتى يطمئنه على تحسن حالتها .

وقف نابليون متستراً ينظر إلى الشعب الهائج الطروب وقد سالت مدامعه فبللت أجفانه من شدة فرحه كيف لا يفرح وقد أوجدله سلالة من العدم لحكم أعظم امبراطورية فى أوروبا .

كيف لا يرقص طربا لو قارن بين ما وصل إليه الآن وما كانت عليه حاله أيام الصبا والفقر المدقع .

كان نابليون شديد العناية بابنه يلاعبه بنفسه ويوقع الأوراق والرسائل وهو على ركبتيه أو مضموما إلى صدره وكثيراً ما كان ينطرح على الأرض بجانب مهده يفكر فى أمور الدولة الخطيرة ويرسم الخطط العميقة .

وأظهر غير ذلك من المبالغة فى العناية التى يلقاها الطفل الوحيد من أبيه مما يحملنا إلى القول بأن مرضعة ملك روما كانت بغير ماجدوى لورزق الله نابليون الثديين فحسب .

قال كونستان فى مذكراته « كثيراً ما كان الامبراطور يعاكس ابنه فيقف به أمام مرآة ثم يبدى له من الإشارات ما يجعل الطفل يكثر من الضحك .

كان يكشر له أو يخرج له لسانه أو يجلسه على ركبتيه ويغمس إصبعه فى المرق ويلطخ به وجهه) .

ولما ذهب نابليون إلى ميادين الحرب طلب من الأمبراطورة إرسال صورة ابنه ولما وصلت الصورة إلى يد نابليون وقف برهة يتأمل فيها والجنود من حوله تهتف بحياته .

غير أن نابليون دفع الصورة إلى سكرتيره قائلا : « احفظها لديك أنريه المعامع وهو طفل صغير ان هذا سابق لأوانه » .

لم تكن تلك العاطفة الابوية فى نفس نابليون نحو ابنه وفلذة كبده فحسب بل كان يعامل أوجين ابن جوزفين نفس المعاملة فكثيراً ما كان يرشده ويبدى له النصائح فكتب إليه أثناء حملته على مصر يقول « ليكن نومك تحت الخباء ولا تركن إلى العرب . ولاتنم مكشوف العينين فى مهب الهواء . أقبلك » .

وكتب إليه أثناء تعيينه فى إيطاليا « يا بنى أنى مرسل لك حساما كنت أتقلده فى حرب إيطاليا فعسى أن يكون طالعه حسناً عليك » .

ولقد بلغ من شدة حنوه نحو أوجين ان تبناه بصفة رسمية عند عقد قرانه على ابنة ملك بافاريا التى كان يعتبرها نابليون كابنته أيضا .

وقد أرسل كتاباً إلى أوجين ليسرى عن هم أوغستا وقد كدرها أن وضعت أنثى فقال « ماذا يكدر أوغستا .

ألاّ إنها ولدت بنتا إذا كان هذا هو الواقع فقل لها أن التى تبدأ ببنت تلد اثنى عشر ولداً » .



الفصل السادس

نابليون فى ميادين السلم

أبدى نابليون من الدهاء فى معاركه فى مصر وإيطاليا ما صار مضرب الأمثال فلما أن آب من مصر كان لرجوعه رنة فرح فى أرجاء البلاد لسوء حالة فرنسا من عدة وجوه .

فالملكيون يبثون الفتن فى لاڤنديه والثورات الداخلية تزداد يوما بعد يوم والأشتباك مع الدول المعادية لفرنسا كالأنجليز والنمسويين .

وما كانت تأتيه حكومة الإدارة من سىء الأعمال كمعارضتها للمحرضين ضدها والعمل على القضاء عليهم بمنح أعوانها المناصب الرفيعة والرتب السامية .

كانت تلك الأسباب باعثة إلى ازدياد الحالة سوءاً فما رجى لها من صلاح اللهم إلا إذا تولى نابليون اصلاح ذلك الإنقلاب الاجتماعى والضرب على أيدى حكومة الإدارة بيد حديدية . وقمع المتطرفين الذين كانوا يتطلعون إلى اعادة حكم الإرهاب والرجعيين معهم سواء بسواء .

فلما عاد نابليون إلى موطنه فى أكتوبر عام ١٧٩٩م ، رأى أنه من الحكمة الإستناد إلى رأس مفكر وقد شاهدها فى سيس فانضم إليه وحزبه .

كان نابليون وليداً للثورة الفرنسية فأخذ السلطة من أفواه مواطنيه لا عن طريق الوراثة فقام بتنظيم حكومة وسط بين الجمهورية والملكية : جمهورية لأنها تستند على ارادة الشعب وملكية مطلقة لأنه استأثر بالسلطة فى يده .

اتبع نابليون خطة بسيطة قائمة على الجرأة ليقلب نظام الحكومة فتم له ما أراد ولقد اعتبر أن تلك الخطة أعظم ما آتاه فى حياته كما قال لمدام دى رميزا التى كانت زوجة للكونت شارل دى رميزا رئيس السراى أيام نابليون وكانت زوجته كبيرة وصيفات الأمبراطورة چوزفين . « تلك فترة حياتى التى أظهرت فيها أعظم مقدرتى » .

وذلك أنه فى عام ١٧٩٧م كانت أغلبية المجلسين من الملكيين بينما كان السواد الأعظم من رجال الإدارة لا يزال من الجمهوريين فأشار نابليون حينئذ بتطهير المجلسين من زعماء المعارضين كى لا يفت فى عضد الجيش فى إيطاليا بعودة الملكية إلى حكم البلاد وسارع فعلا بتعضيد حكومة الإدارة ونصرتها باستخدام جنده .

فاصطفواعند مدخل الأورانچيرى والحراب تلمع فى أيديهم للقضاء على خصومها وتعرف هذه الحركة فى التاريخ بانقلاب فركتيدور .

وفى ١٨ نوفمير سنة ١٧٩٩م ، حصل انقلاب بروميـر الذى تمكن به نابليون من القضاء على دعاة الفتن والاضطراب وتأليف حكومة مؤقتة على رأسها نابليون وسيس وديكو لادارة شؤون البلاد ريثما يتم تشكيل دستور جديد يعهد أمره إلى لجنة مكونةمن المجلسين تحت إشراف الحكومة المؤقتة وقد تم وضع هذا الدستور فى عام ١٧٩٩م .

وأهم ما تضمنه وضع السلطة الرئيسية فى يد ثلاثةقناصل على أن يكون نابليون القنصل الأول له حق إمضاء المعاهدات واعلان الحرب ورئاسة كل من الجيش والإدارة بملحقاتهما .

نظر نابليون إلى قانونه من ناحيه المصلحة من ناحية اتفاقه مع العقل فجاء وليس فيه غموض ولا عسر موفق بين تشريع الثورة والتقاليد المعروفة القديمة التى حفظها الخلف عن السلف من أبناء فرنسا .

فشدد على سهولة تغيير الزوجة وقيد ذلك بشروط كما أنه فرض على المرأة اطاعتها لزوجها وتقديس الملكية للفرد واباحه الطلاق والزواج المدنى .

وسلطة الولد وغاية القول أنه وضع قانونا تضمن ما أدخلته الثورة الفرنسية من اصلاحات أقامه على مبدأ التسامح وشيده على الإنصاف .

ولكن بالرغم مما آتاه نابليون فلم يخل عمله من هجو النقاد فقالوا وماهو بقانون إنه لكتيب يشمل بعض القوانين العامة وإنه لعمل سطحى يثبت مقدار تهور واضعه وتسرعه .

انتهت الهيئة المكونة لوضع دستور ١٧٩٩م ، بوضع السلطة فى يد الثلاثة قناصل لمدة عشر سنوات ينتخبون بواسطة مجلس الشيوخ .

ورأينا أن نابليون كان القنصل الأول وكان بجانب هؤلاء القناصل الثلاثة ثلاث هيئات تشريعية وهى

١ - **مجلس الشيوخ** ورئيسه سييس الذى انفرد بالسلطة التشريعية ولاعضائه البقاء فى كراسيهم حتى ينقضى نحب الواحد منهم فتنتهى مدته ومهمة هذا المجلس مراعاة تطبيق نصوص الدستور وانتخاب أعضاء مجلسى التربيون والتشريعى .

٢ - **مجلس التربيون** وأعضاؤه مائة يستبدل بخمسهم أعضاء جدد كل عام وليس لهم إلا درس القوانين التى يكلفون بها فقط .

٣ - **المجلس التشريعى** ويتكون من ٣٠٠ عضو يسقط ستون منهم كل سنة ويحل فى مراكزهم آخرين ولهم أن يقروا قرارهم الأخير فيما يدرسه مجلس التربيون .

قلنا أن حكومة نابليون كانت وسطا بين الجمهورية والملكية المتطرفة ويدلنا على مظهر الأخيرة ما قام به نابليون من طرق الإستبداد فى وضع الحكام فى مراكزهم كآلات خاضعة لارادته . ولكن كان ذلك النظام المركزى الذى اتبعه نابليون أخف وطأة لو نظرنا إلى النظم القاسية التى عاناها الفرنسيون قبل ذلك بعشر سنوات .

قضى نابليون بالخطة التى اتبعها فى حكم البلاد على التنافس الحزبى الذى أدى إلى كثرة المشاحنات والمنازعات بين اليعقوبيين والجير ونديين والملكيين فظل يعالجهم بسياسته وحنكته حتى ألجأهم إلى نبذ التباغض والعمل على مبدأ التسامح فحماهم فى حكومته المنظمة بحماية القانون غير مفرق بين هذا ولا ذاك .

ومما زاد فى جاذبية الشعب إليه أنه سمح للسياسيين المبعدين عن وطنهم بالعودة .

وللاشراف المطرودين بالأوبه واستحال على الفلاح الفرنسى أن يفكر يوما ما برجوع عهد الارهاب وفتره الارهاق حيث كانت محكمة الالتزام تحمله مالا يطاق من الضرائب الفادحة .

ولو تصورت أن التاجر كان يدفع ضرائب على بضائعه على حدود كل مقاطعة تمربها لعلمت مقدار غلاء السلع لضيق التجارة وتقييدها بالقيود المرهقة .

لم تنحصر كفاية نابليون فى توطيد تلك النظم وإخمادتلك الفتن بل امتاز بالقدرة على اثارة النفوس وتوليد الحماسة والأمر والنهى بين الناس وتلك الخلال النادرة التى يعوزها الحاكم المحنك الذى يريد نوال رضاء المحكومين أضف إلى ذلك ثقته بنفسه إلى حد كبير فكان يعتقد أن ما يوحيه إليه فكره أنفع له من نصيحة أى نفر من الناس ممن علت مكانتهم ، وامتازوا بالحنكة وقوة الذاكرة وصفاء الذهن ليس غريباً أن يأنس فى نفسه تلك الثقات وقد كان يعمل ١٨ ساعة فى اليوم الواحد باستمرار وبدون انقطاع وهو حاد الذهن فكان أعجوبة لمرؤوسيه مع قلة تعليمه وتحريفه فى الكلمات عند نطقها وقد كان يراعى الاقتصاد فدقق فى أمور المالية والحسابات فخشاه الموظفون الذين انتقاهم غير مفرق فى الدين أوالمبدأ . وأصبح الوالى فى مقاطعته والمحافظ فى مدينته والحاكم فى دائرته يكد ويجد كى يأمن غضب هذا الجبار المسيطر على الصغيرة والكبيرة فيستعرض الأوراق ، ويملى الرسائل على ناموسه وامتازت تلك الانجازات فى غير غموض بل دلَّت على صوت قوى مهيمن وعقل متوقد ينم عن طبيعة مملية وصعوبة مراس راسلة .

كان نابليون يقوم بتلك الأعمال الجليلة خدمة لصالح فرنسا ومراعاة لسلامة ساكنيها .

والمتهورون من حزب الملكيين يتآمرون عليه لسلب السلطة من يده والتخلص منه بطريق القوة وقد كان الكونت دارتوا ثانى إخوة لويس السادس عشر وتولى عرش فرنسا عام ١٨٢٤م ، وسمى (بشارل العاشر) المحور لتلك المؤامرة وأعوانه فى ذلك الجنرال بيشجرو فاتح هولندا إبان الثورة وچورج كادودال أحد الملكيين فى لاڤنديه .

ولكن سرعان ما ألقى القبض على أولئك المتآمرين وقدموا للمحاكمة فكان الإعدام جزاءهم فعرف نابليون كيف ينتقم لنفسه من أعدائه ولا لوم عليه فقد أتَى بالخدمات الجليلة ويقوم نفر متمرد بمجازاته بمؤامرة دنيئة .

حقيقة أن نابليون أراق دماء الكثيرين ممن كانت تحوم حولهم الشبهة فى القيام بتلك المؤامرات لاغتيال حياة نابليون غير أن ذلك لم يكن إلا من دهائه السياسى لكيلا يجرؤ فرد آخر على القيام أو الأشتراك فى فكرة كهذه تهدد حياته .

قيل له أن الدوق دانچيان على اتصال بالخائن ديمورييه وقد أوعز إليه الأخير أن يسرع إلى فرنسا لتولى زعامة مؤامرة على حياة نابليون . فما كان من بونابرت إلاأن أصدر أمره بالقبض عليه وإعدامه وقبل فجر اليوم التالى أعدم الدوق دانچان رميا بالرصاص ووريت جثته فى حفرة أعدت لذلك ولما ظهرت براءة الدوق مما نسب إليه بل وإنه كان غير موافق على تلك المؤامرة قال نابليون :

« لم نأت عملا نكرا فليكن ذلك درسا قاسيا للبربونيين حتى لا يقدموا على الأشتراك فى مؤامرة لأغتيال حياتى مرة أخرى »

كان نابليون إداريا كفؤاً فاعتبر لذلك المثل الأعلى فى الإدارة فقام بشغل منصب القنصل الأول خير قيام فوضع القوانين وخاض غمار الحرب فمد فى حدود فرنسا ولم يقم إلا النزاع بينه وبين البابا .

وانتهى منه بحل حاسم فنصب نفسه رئيساً للسلطة الدنيوية والبابا تملك زمام السلطة الدينية . غير أن نابليون رام شططا فلم يقنع بمنصب يشغله سنوات معدودات بل تطلع إلى مركز أعلا وأرفع .

ولم يستعص عليه استفتاءه فأجيب طلبه ووافق الشعب على منحه القنصلية سنة ١٨٠٤م ، مدة حياته وله حق تعيين خلفه وأعضاء مجلس الشيوخ .

ولم يقف حظه عند هذا الحد بل ومنح لقب امبراطور الفرنسيين فى ديسمبر سنة ١٨٠٤م ، وتوجه البابا على مثال امبراطورة الرومان الأقدمين وكانت حجة الشعب الفرنسى فى منحه هذا اللقب هى الظروف العصيبة التى أحاطت به من حروب ومؤامرات قامت ضده ولم يلبث أن عين اخوته لويس ويوسف وچيروم لوراثة العرش . وأخذ ينظم فى شؤون البلاد الداخلية ويغير بعض نصوص الدستور كى تطلق يده إطلاقا تاما وبعد أن فرغ من تثبيت قدم الامبراطورية ولى وجهه شطر الدول الأوربية المعادية لفرنسا .

قبلت الثلاثة مجالس التشريعية مبدأ الحكومة المطلقة الوراثية كما قبلها كل فرنسى بدون أدنى مقاومة . فالجنود والفلاحون والطبقة المتوسطة من الشعب رأت أنه لا شىء أفضل من الاستكانة إلى السلم بقبول نظام كنظام نابليون قائم على المساواة .

فهو من أى وجهة أفضل من نظم الثورة وعهد الارهاب وذلك راجع إلى أن الرجل الفرنسى فى ذلك الوقت كان مسالما كالفلاح المصرى فى وقتنا الحاضر يرجو الحصول على القوت من أقرب طريق سلمى لا يعرضه لتحمل أخطار أو معاناة مشقة .

أما عن وراثة خلفه لعرشه فقرر ألا تخرج الامبراطورية عن دائرة أبناء لا تيشيارا حتى إذا لم يكن للإمبراطور من أبناء ولم يتبن أحد أحفاده يؤول التاج إلى يوسف وذريته ولويس من بعدهم ولم يذكر شيئا عن اخويه چيروم ولوسنيان لزواجهما على غير ارادته فالأول تزوج من امريكية اجنبية أحبها وهو فى البحرية والثانى لتزوجه من فقيرة من الطبقة الوسطى للسبب عينه فلامهما نابليون لاعتباره أن كل بونابرتى أصبح فى نظره أميراً لا يتزوج الا بأميرات فى مستواه .

اهتم نابليون عند توليته الامبراطورية بالرسميات فطفق يكون بلاطا منظما لحفلات الاستقبال مترسما فى ذلك خطا البراطرة المعاصرين له .

غير أن المرء كان يدهش إذا رأى ذلك القرشقى الخشن ينظم بلاطا وليس عنده من تقاليد الأرستقراطية أو من واجبات الملاطفة أو من المجاملات ما يعوزها الملوك فى قصورهم بل كان امبراطوراً ويمسك بيده مبراة يحفر بها على الموائد وحوائط الغرف والأعمدة التى نصبت لتزدان بها الصالات .

وإذا جلست غادة من غادات القصر لا يداعبها الامبراطور إلا بشد آذانها بقوة وكان يسلك المسلك عينه حتى مع طفله الصغير ملك روما من تلطيخ وجهه بالمرق وهو على المائدة أو من الأتيان بحركات هزلية تزيد من اغراقه فى الضحك .

غير أن تلك الطباع سرعان ما تبدلت بغيرها وبدت الرزانة وجلال الملك ووقار الرسميات على وجه نابليون فالتقاليد الرسمية وطأطأة الرؤوس اجلالا والسير بخطوات معدودات كل تلك كانت عاملا كبيراً فى إظهار نابليون بمظهر الهيبة والإجلال .



الفصل السابع

أخلاق نابليون

حلل الكتاب أخلاق نابليون وسيرته . وأخذوا يكتبون ما تمليه عليه ضمائرهم ولكنهم جميعا مختلفون لا تكاد ترى اثنين منهم على رأى واحد .

ولعل أقرب صورة إلى الحقيقة ما كتبه المسيو بوريان صديق نابليون وقد كان كاتبه وأمين أسراره .

قال بوريان : (لكى أجعل الناس يقفون على حقيقة حال نابليون عقدت العزم على كتابة المادية والأدبية وماعرفته من ذوقه وعاداته وطباعه وأهوائه أجل إن المصورين والمثالين رسموا صورته على النسيج أو صنعوا له من الرخام تماثيل فأصاب نفر منهم فى تمثيله إلى حد معلوم . فاستطاعوا مثلا تصوير جسمه الصغير ورأسه المستدير وخده الشاحب وحاجبيه الكثيفين وتلك الأسنان البيضاء واليدين الدقيقتين صوروا كل ذلك ولكنهم عجزوا عن تصوير نظراته القلقه فى محاجرها وكانت له يدان ناعمتان يفخر ويعنى بهما وكان يمشى وظهره منحن قليلا ويداه وراء ظهره إذا تنزه وحده أو مع سواه فى البيت أو فى الحديقة .

وكان يكثر من ابداء حركة عن غير قصد فى كتفه اليمنى يرفعها آونة ويخفضها أخرى حيث يتوهم الرائى انهما من قبيل التشنجات العصبية وهاتان الحركتان كانتا تنبئان عن اجهاد عقلى شديد يحوم حول خواطر كبيرة وبعد إيابه من رياضته تراه يملى على بما يجول فى خاطره .

كان قوى البنية لاينتابه خور وهو على صهوة جواده فى ميادين القتال وكثيرا ماسار ماشيا نحوا من ست ساعات لايعتريه فيها كلل وكان من عاداته وهو يتنزه مع أحد أصدقائه أن يتأبط ذراعه وكان يقول (ترى يابوريان كم أنا قليل الأكل والشرب نحيف الجسم وكأنى بنفسى تناجينى مما يؤول إليه أمرى حين أبلغ الأربعين من عمرى ضعيف القوى مترهل الجسم).

كان شديد الولع بالاستحمام يعده من الضروريات وقد تعود أن يقيم فى

حمامه ساعتين متتاليتين كل يوم وكنت أثناء ذلك اقرأ له خلاصة الحوادث وبعض مقالات تتضمن هجوا له قبيحا .

كان يريد أن يسمع كل شيء ويعرف كل شيء وينظر إلى كل شيء وكان أثناء مقامه فى الحمام يفتح صنبور الماء الساخن فترتفع الحرارة إلى حد يجعل القراءة صعبة على بسبب البخار الكثيف المتصاعد والحائل بينى وبين الصحف التى اتلوها فحينئذ اضطر إلى فتح الباب .

وكان نابليون معتدلا فى كل شيء متجنبا الافراط والتفريط ولم يفته مايذيعونه عنه من الأخبار السيئة .

وكان فى بعض الأحيان يستشيط غيظا ويضيق صدره لعدم معرفتها وكان يشاع بين الناس أنه كانت تنتابه نوب غشيان تشبه نوب (النقطة) ولكنى فى السنين الاحدى عشر التى قضيتها معه بغير افتراق عنه لم يظهر منه ما يدل على صحة هذا الاختلاق .

فقد كان سليم الجسم متين البنية . وهب أن أعداءه توهموا أنهم يحقرون من شأنه بإذاعتهم عنه أنه مصاب بذلك المرض فان مريديه الذين يظنون أن النوم لا يتفق مع العظمة لم يكونوا معادين فى زعمهم أنه يحيى لياليه ساهراً فإن بونابرت كان يكابد غيره السهر حين يغوص فى لجة الكرى وكان يريد أن أوقظه الساعة السابعة صباحا كل يوم فكنت اسبق غيرى إلى دخول الغرفة .

وحين أوقظه يقول لى فى غالب الأعيان وهو متناعس . « يابوريان أطلب منك أن تتركنى أنام قليلا » وإذا لم يكن هناك شيئاً هاما كنت أعود إليه الساعة الثامنة . وبالإجمال كان ينام كل يوم سبع ساعات وبعد الظهر بضع دقائق .

وكان نابليون قد أوعز إلى بأن لا أكثر من الدخول عليه ليلا وألا أوقظه حين يكون لدى خبر سار أبلغه اياه فلا شيء يدعو إلى الإسراع فى ذلك ولكن يود أن أوقظه فى الحال إذا كان لدى خبر ردىء .

وعند استيقاظه يبادر خادمه إلى حلق لحيته وتسوية شعره وبينما الخادم يجرى له ذلك أقرأ له الجرائد فيبدأ بجريدة (المونتيور) ولكنه لم يهتم الا بالجرائد الانكليزية والالمانية فيقول لى « أنى أقرأ الصحف الفرنسية».

انتقل إلى غيرها فانا أعرف ما فيها فهى لا تكتب إلا ما أريده وكذلك ما كنت أعجب من نجاته من الجرح حين يلتفت لفتة وخادمه يحلق له ذقنه وحين يفرغ من لبس ثيابه وكان شديد التأنق ينزل إلى مكتبه فيوقع العرائض المهمة التى طالعتها مساء اليوم السابق وكان يوقع تلك العرائض أيام الاحتفالات والاستقبالات إذا كنت أذكره بأن جميع أصحابها ينتظرون أمام مكتبه .

ثم يقرأ الكتب المفتوحة على منضدته بعد أن أكون قد رتبتها بحسب أهميتها فيكل إلى الإجابة عنها وفى بعض الأحيان يجيب عنها بيده ولكن هذا كان نادراً لأن الإجابة عن الكتب المرسلة إليه مجلبة لضجره .

وعند الساعة العاشرة يأتى خادم المائدة ويخبره أن طعام الصباح قد هيىء فينزل . ولم يكن يتناول شيئاً من الروحيات وهو شديد الولوع بالقهوة وإذا اضطررنا إلى اطالة السهر تناول (الشكولاته) ولم يكن يتناول التبغ إلا تشدقا بكميات موضوعة فى علبة .

وكان شديد الميل للحب والحرب ولم يكن مقتر الجبين إلا فى الحرب ولا مقطبه إلا فى الراحة كان نابليون شديد الميل للحب ولكنه القائل « الحب مشغلة الخامل ومضيعة الجندى وعثرة المبلك » ليس الغرض من ذكر ذلك القول بأن نابليون لم يصدق بفعله ما ينطق به لسانه .

فقد أحب ككل شاب فى مقتبل العمر ولكنه قال ذلك بعد أن عانى من حياته الزوجية « إذا قدر ووقعت فى شرك الهوى فأنى أحلل عاطفتى بالدقة التامة » .

قال لى نابليون مرة « أن الشهرة العظيمة تتعلق بمجدى ومجدى بالانتصارات التى أصبتها وهى تسقط أن لم أجعل قاعدتها المجد والانتصارات الجديدة فالفتح قد جعلنى على ما أنا عليه .

والفتح دون سواه يحفظني كما أنا ، إن الحكومة المولودة فى الشقاء محتاجة إلى أن تبهر الأنظار وتدهش الناس وحالما تفقد اللمعان تسقط .ولم يكن فى الحقيقة مستطاعا أن نطلب الراحة من شخص كان الحركة بعينها وكانت عواطفه نحو فرنسا تختلف عنها حين كان حدثا فقد بقى مدة طويلة ضيق الصدر عند تذكره فتح التى كان يعتبرها دون سواه موطنا له ولكن مالبثت تلك الذكرى أن اختفت وصار يحب فرنسا محبة عظيمة وكان حنانه ملتهباً بتشوقه لرؤيتها عظيمة قوية وأول أمة فى العالم تخضع جميع الأمم لشرائعها.

لم يكن نابليون يكف عن التفكير فقبل إضرام المعركة يهتم بما يجب أن يفعل فى حالة الإنكسار والهزيمة أكثر مما يهتم بفعله فى حالة النصر .

وكانت مطامعه الشديدة تدفعه نحو السلطة إلا إن تلك السلطة التى اصابها زادت طمعا على طمع وإن اعظم الحوادث تكون فى غالب الأحيان نتيجة لأمور تافهة وهذا هو السب الذى من اجله كان يتوقع تلك الحوادث ولا يستنزلها فيشاهدها تتهيأ وتصح . فيثب إليها مفاجئا ويسيرها على هواه .

ولم يكن نابليون بطبيعته ميالا إلى احترام الناس بل كان يحتقرهم كلما طال تعرفه بهم . وكان دائما يقول (فحلان يحركان العالم الخوف والمصلحة) ومن أعظم مبادىء نابليون أنه لم يصدق بوجود الصداقة وإنه لم يشعر بالحاجة إلى الحب إلا فى أواخر أيامه وكم من مرة قال (الحب ليس سوى كلمة أنا لا أحب أحداً أنا لا أحب وربما أشعر بشىء من الحب لجوزيف وذلك من قبيل العادة لأنه أخى البكر .

أحب أيضا دوروك لأن طباعه تعجبنى فهو بارد جاف الخلق وصلب ماكر لا يذرف الدمع أبداً وأنا أدرى أنه ليس لى أصدقاء حقيقيون انظر يابوريان لنوع النساء يبكين فهذا أمر يعنيهن أما أنا فلا شىء يجعل فؤادى يرق) .

وكان فى علاقاته مع الهيئة الاجتماعية يحب التحرش بالناس بإهاناته وقوارص كلمه مدبرة بتصميم سابق .

وإذا أراد إظهار استياءه من أحد يشجعه حضور الشهود على ذلك فيوجه إليه كلاما قـاسيًا حادا على أن ثورات الغضب هذه لا تحدث الا حـين يتحقق من جرم الموجه إليه كلامه .

وقد قـال لاصدقائه وهو فى جـزيرة القديسة هيـلانه : أنه لم يكن يدعو شخصا ثالثا للحضور إلا ليجعل لتلك الضربة مدى بعيداً .

وفى أثناء المدة التى قضيتها معه لاحظت أنه لم يحب الاختلاء فكان حين ينتظرأحــداً يقــول لى ابق هنا يـابوريان) وكـان ينظر إلى رجـــال الثـورة المشهورين بسفك الدماء بعين الاحتقار .

هذا ما كـتبه بوريان الذى انتـخب بعد سقـوط الأمبراطورية عـضوا فى مجلـس النواب ثم عين كـاتبا لمسـيودى فيـلال رئيس الوزارة فى عهـد الملك لويس الثامن عـشر . وفى عام ١٨٢٨ ساقـته الأقدار إلى بروكسل عـاصمة بلجيكا وجيبه فارغ والديون متراكـمة عليه ففكر فى الإنتحار وقد بلغ ٥٩ من عمره ولكنه ســاوم المسيو لوفوكا أن يبيـعه مذكراته عن نابليون بسـتين ألفاً من الفـرنكات وطبعت هذه المذكـرات لأول مرة عـام ١٨٢٩م ، وكان الإقـبال عليها عظيما واكتسب ناشرها مالا يقل عن مليون من الفرنكات .



نابليون مع أسرته

آراء آخرى فى أخلاقه

كان نابليـون أيام توليته القنصليـة الأولى يجد لذة كبيـرة فى المقام بين عشيرته وذويه فبعد أن انتهت الحملة الإيطاليـة بعقد صلح « كامبو فورميو » سافر إلى مسقط رأسه وعاش عيشة عائلية يحيط به أمه واخوته واخواته ومعهم أوچين بن چوزفين الذى جعله ياوره الخاص .

وإليك ما قاله مارمون يصف فترة مقامه هذه مما يثبت لك حقيقتها .

كان نابليون يظهر كل أنواع السرور والانبساط فمن طلاقة إلى بساطة فى المعاشرة إلى معاملة خالية من كل تكلف بل كان يمزح كثيراً فى احتشام وغير مرارة .

قال أرنوك « كان نابليـون إذ رأى الحديث مائلا إلى السكون حركه بالأقاصيص والحكايات المختلفة الغريبة فى تلفيقها » .

ولم يكن نابليون ليتطلب المبالغة فى اكرامه واحترامه ويستقبل الناس على وجه لم يألفوه كما انتقد عليه بعض المؤرخين فيدحض قولهم أنه زوج اخته بولين إلى ابن تاجر دقيق وعقد لأليزا على ضابط صغير بالجيش الفرنسى فلم يكن نابليون وقتئذ يحلم بالتيجان بل كان صاحب علم منصور تتحدث عنه الدنيا بل كان قائد جيش كبير يحتاج إلى احترام الناس .

بل كان فوق ذلك ممثل دولة عظيمة الشأن ألم يكن منصب نابليون فى ذلك ممثل دولة عظيمة الشأن ألم يكن منصب نابليون فى ذلك الحين يقتضى احترام الناس له وتقديرهم إياه .

اعتلى عرش الامبراطورية فازداد حبه لامه واخوته واخواته . ولكن زاد ضعف ارادته وتسامحه أيام حبه لجوزفين ومن تفانيه فى ارضاء مارى لويز لحملها على حبيه كما أنه تنزه عن الضغينة والحقد على أناس من الذين اساءوا إليه قبل صعوده إلى قمة شاهقة من العز والمجد .

قال كثــيرون من المتحامليـن على نابليون وفى جملتهم العــالم تين (كان نابليون خشن الطبع فظ الخلق لم يذق المقربون إليــه شيئا من حلاوة اللسان وطيب المعاشرة) .

وقال اليزون فــى تاريخ أوربا « أنه لما أبلغ اللورد ويتورث سفيـر انكلترا نابليون أن حكومته تعـد معاهدة اميان باطلة غضب غضــبا شديدا وخرج عن صوابه . إلى حد أن رفع يده ليضرب السفير » .

فتناول الناس هذا الخبــر دليلا على شراسة طبع نابليـون وتلقفه الخلف عن السلف من المؤرخــين وبعد تسعـين سنة خطر للمســتر اوبيكار برون أن يراجع مستندات الحكـومة البريطانية وينظر فى قيـمة تلك التهمــة فانتهى به البحث والتدقيق إلى تقرير الحقيقة الآتية :

(أن ما قيل عار عن الصحة وأن تلغرافــات السفير الأنجليزى نفسه تدل على بطلانه) فســقط من ذلك الحين كل ما بناه خصــوم نابليون من المطاعن والمثالب على ذلك الخبر الملفق .

والواقع أن مــعاملة نــابليون لأمــه واخـوته حتى كــان يحـرم نفســه من الجلوس فى القهوة لــيتمكن من اعانتهم . ثم احــتفاظه بصداقــة الذين عرفهم أيام الصبا مثل بورين وچونوومارمــون وغيرهم من الذين عينهم فى وظائف مختلفة ونهض بهم فى مدارج الرقى كل ذلك يبطل مازعمه الخصوم .

ولو كان نابليون مــتصفا بالطبع الوحشى كـما زعم خصومه ومــشهوراً بمثل هذا العيب الفــاضح لمارضى امبراطور النمــسا أن يزف إليه ابنتــه . فإن الغرض الســياسـى الذى كــان يرمى إليه الامبــراطور فرنســوا لم يكن وحده كافيــا للتضحـية بابنته وما كــان العيب الأكبر الذى رمى به هذا الامــبراطور التجرد من العواطف البشرية والحنو الأبوى . أو كان الضعف السياسى الذى جعل الامبراطور النمساوى عجينة فى يد وزيره مترنيخ .

فمهـما يكن من أمر الرسائل التى بعثت بهــا مارى لويز تكفى لدلالة على أنها كانت تلقى خير ما تلقاه الزوجة من زوجها .

وكان نابليون يعد الحسنات من الأعمال الخالدة كالانتصارات والاصلاحات فلم يعتقد بخلود اللقب فقد قال حين نفى إلى جزيرة البا عن الملوك الذين سموه (بالمغتصب) .

« يلقبنى نفر من الملوك وذووا التيجان اليوم بالمغتصب بعد أن أرسلوا ممثلى دولهم إلى مع الإجلال والإحترام وبعد أن وضعوا فى سريرى ابنة منهم وبعد أن دعونى أخالهم فهم أرادوا أن يبصقواعلى فبصقوا على وجوههم ألاماهى قيمة لقب (امبراطور) إذا لم يكن بجانب هذا القب تلك النظامات التى وضعتها والانتصارات التى أحرزتها والمعاهد التى شيدتها . تلك هى القاب المجد الحقيقية » .

وإذا رجعنا إلى أقوال المعاصرين له وجدنا فيها براهين دامغة على تحامل خصومه فقال شاتو بريان .

« غشينى بونابرت بمظهر بسيط ثم أخذ بلا توطئة ولا أسئلة عقيمة يحدثنى عن مصر والعرب وكأننى صديق حميم وكأنما حديثنا كان تتمة لحديث سابق » .

وقيل فى (مذكرات باريس) أن نابليون كان يبتسم لمحدثيه ابتسامة لطيفة تجعل ثغره مستحبا جداً وتبعث الثقة فى نفس السامع فقد اقترب منى يوما بمنتهى اللطف وأخذ يحدثنى عن مسارح التمثيل بلا تكلف وهو يفضل الروايات (التراچيديا) .

وقال لومبار الذى كان مستشاراً خاصا لملك بروسيا سنة ١٨٠٣م .

(أن الأجانب مخطئون بقولهم إن طبع نابليون شديد فظ وأنه متسرع فى أحكامه) .

وكان من أخلاق نابليون ما سيذكره المسيو دى سيجو الذى عاش على مقربة منه وعرف كنه حياته قال « أنه كان يصنع الخير مع الأفراد الذين أخنى عليهم الدهر ويظهر اللطف والرقة ويتبع سبيل الأقتصاد والبساطة فى بيته ولا يحرم الذين كانوا حوله من وده وحبه » .

وكان لروح السلطة سلطان على طبيعة نابليون تلك ظهرت من استقصائه عن كل صغيرة أو كبيرة وكان محبا لنفسه طماعا حتى فى لعب الورق فيبذل عنايته وجهده ولو بالطرق غير المشروعه إلى الكسب وبلغ من تدخله وتسلطه أنه كان يختلى بسيدة من سيدات البلاط أو أحدى معارفه فيدبر لها مصاريفها المنزلية أو نفقات الخيل التى تملكها .

صارح نابليون كل أصناف وطبقات الرجال والسيدات إلا أننا لا يمكننا أن نعتبره مثلا للصدق أو حسن الذوق فقد ذكر أن للكذب والتحايل من فوائد أحيانا فيظهر ذلك فى قوله (نقول أن فلانا كذوب وليس من الضرر أن يكذب أحيانا بل من الضرر أن يكذب دائما) .

ولم يكن نابليون قادراً على حبس عاطفته دواما فقد كان يأتى بما يأتيه كل شخص ليس أعلا أو احط من المستويات المعتادة فى عصره إلا أنه لم يكن لسلطان المرأة عليه أثر يضر بمصالح البلاد أو يدفعه إلى تهاونه بما فيه خير مواطنيه .

وكان من ضروريات ذوقه فى الجمال أن يكون الشىء عظيما فقد كان قلبه يتهيج مثلا لهدير الامواج أو لجمال الأماكن ذات الاتساع العظيم ولم يكن ميالا بطبيعته للخيال أو الطرب أو خفة الروح أو الفنون أو الموسيقى قال فى ذلك الصدد (أن حسن الأسلوب أو ردائته لا تؤثر فى إنى لا أتأثر إلا بقوة الفكر) .

وكان يشعر دائما أن الوقت من ذهب حتى فى الأوقات التى كان فيها خلوا من العمل فكان احرص ما يكون على الوقت والمال حتى انه وصف (بالبخل) فى وقته (والاحتقار) لانواع المسرات .



الفصل الثامن

الدين فى نظر نابليون

لم يعتبر نابليون الرأى القائل بأن الدين قوة دنيوية زائلة بل اعتقد انه (سر النظام الأجتماعى) وأن الناس عند الله سواء فشعر بحاجته إلى تقديس الآراء الدينية : فهى مادة مهمة فى النظم العامة للتهذيب وهى الحائلة بين الشعوذة والألحاد وهى المدربة على حسن التفاهم والطاعة .

رأى سيطرة القوى الروحية على نفوس الفلاحين وجنود الجيش فاعتقد الفلاح الإيطالى فى الإيمان بالقديسين والمعجزات وشفاعة السيدة العذراء عند الله فأراد نابليون أن يستميل الشعب باحترامه لتلك القوى فأبدى كثيراً من آرائه فى الدين وتقديسه لنظرياته كسياسى محنك لا يبغى إلا محبة الشعب وخضوعه له .

وبينما كان يتنزه نابليون مع أحد اعضاء مجلس الدولة خاطبة فى شأن الدين فقال : كنت اسير مثل هذا اليوم فى تلك البقعة منفرداً والطبيعة هادئة فطرقت أذنى صلصلة ناقوس احدى الكنائس المجاوره فحركت شجنى وراعنى هذا الصوت وقد يكون لهذا الصوت من روعة أشد وأحلى لدى المتدينين ينبغى أن يكون الناس على دين تفرضه الحكومة حتى يجرى الجميع وراء مصلحة واحدة) .

وقال أيضا : زعم بعض المواطنين والأجانب أنى اعتنق الكاثوليكية ولكنى لست أدين بها حقيقة فلما كنت وما زلت لجرى لمصلحة الأمة رأيت أن أكون مسلما فى مصر وسأكون كاثوليكيا هنا .

ونستنتج من آراء نابليون الدينية اعتقاداته الآتية :

١ ـ عدم التقيد والأتباع لدين واحد .

٢ ـ اعتقد فقط بفكرة وجود الاله فهو الذى خلق كل الأشياء .

٣ ـ الدين عنده هو سر النظام الأجتماعى .

٤ ـ أن رجل الدين هو الذى يعـمل بقوة تأثيـره على رسوخ قـدم النظام الاجـتـماعى فـيـثـبت روح الطاعـة فى النفـوس ويحمل الـناس إلى التكاتف والاتحاد ولا يعمل على فكرة التحزب التى تقسم الناس شيعاً .

★★★

الفصل التاسع

نابليون فى ميادين الحرب

ولنسرد الآن جملة المعارك والأنتصارات التى خلدت ذكرى البطل القرشقى تلك التى كانت تشغل باله أيام بعث بتلك الكتب الغرامية ونظر فى أموره العائلية .

الحملة الإيطالية

قال القائد (كلود برچيه) مامعناه :

« لما توجه نابليون إلى إيطاليا لاستلام القيادة من الچنرال القائم بها هناك كانت فرنسا مهددة بأحوالها الخارجية فمن انجلترا التى اعتصمت فى جزرها إلى النمسا التى كانت تتحين الفرص للاخذ بثأرها مما دعا القواد والجنود النمسويين إلى القول (بأن إيطاليا ستكون قبرا للجنود الفرنسية).

هذا فضلا عن حالة ضباط وجنود الجيش الفرنسى تلك التى كان يرثى لها وقد صادف أن فرقة من فرق الجيش الفرنسى قاربت ميلان فدعى أحد ضباطها إلى وليمة أقامها مركيز فى قصره وكم كان مؤثراً أن ترى الضابط (الذى اشتهر بالتأنق فى ملبسه) يلبس حذاء غير منتعلة وقد ربطت بأحبال صبغت بعناية .

فلما وصل نابليون إلى مدينة نيس حيث كان معسكر الجيش العام رأى فيه من القواد العظام أو چيروولاهارب وكاسينا وكلهم من الذين قادوا الجحافل وخاضوا العجاج فجعلوا ينظرون إلى الجنرال الضئيل النحيل الجسم الذى قدم ليتولى القيادة العامة .

شـاب صغـير يقـود أكبـر منه سنا من قـواد عظام طالما خاضـوا غمـار الحروب لا يـكون تعيـينه إلا نتيـجة المحـاباة حقـيقـة ذلك ولكن لهذا القـائد الصغير النحيل من المميزات مالم تتوفر فى سواه .

قـال لاڤاليـت يصف نابليـون وقت وصوله إلـى مركـز الجـيش « بدالنا ضعيفـا نحيلا ولكن له نظرة يتطاير منها الشرر وقد تلـعثم لسانى من شدة خوفى عندما أرد مخاطبتى » .

وقال آخر « كان يتكلم بتؤدة ووقـار وروية حتى أقنع كل من سمعه بأنه جدير بقيـادة الأبطال وكانت الأمة المتأججة فـيها الحماسة التى أثارتهـا فيها حب نصرة الشعوب مـستعدة للسير وراء قائد مثله له عـزيمة ماضية وارادة حـديدية ومهـارة فى فن الحرب وأسـراره إلى فصـاحة وقـوة خيـال وحب للصـيت وقـدرة عـلى مس أوتار القلوب ببـضـع كلـمـات فى بلاغ أو نشـرة حـربية » .

كان عـدد الجيـش الفرنسى لا يتـجاوز سـتة وثلاثين ألف رجل وكـانت ملابسه قديمة ورواتبه متـأخره فى حين أن الجنود النمساوية وحلفاءها أبناء بيد مـونت كانوا ٨٤ ألفا مـسلحين بثـلاث مائة مدفع وعلى أتم أهبـه وأكمل استعداد ، فكان كل جندى فرنسى مضطراً إلى مقاومة ثلاثة من الاعداء .

رأى نابليون أن أحـسن طريقة يسلكهـا فى هذا المركز الجـديد استعـمال الشـدة ومراقـبـة تنفيـذ اوامـره بدقة تامـة فـقال « رأيت أن هناك ضـرورة لاستعمال القسوة كى أسوس رجالا لايفوقوننى الا فى كبر سنهم» .

فـسرعـان ما ناقش قـواده فى مـراكز فـرقـهم ورسم لهم الخطط التى يسيرون عليها واعلن فى نفس اليوم قيامه فى الغد باستعراض الجيش .

ومهاجمته العدو فى اليوم التالى بعده .

ففى عـام ١٧٩٣م تحالفت دول أوروبا ضد فـرنسا فـأخذت لجنة الأمن العـام تدفع الخطر عن البلاد بمهـاجمـتهـا البلجيك وهولنـدا وقد احتـلتهـما وبخروج بروسيا من بين دول أوربا المتحالـفة لم يبق سوى انجلترا والنمسا وسردينيـا فبدأت حكومـة الادارة فى فرنسا بـتوجيـه ضرباتها إلى النمـسا

بأرسال حملة عن طريق إيطالياقسمت إلى قسمين فالقسم الأول يسير عن طريق الطونة إلى ڤينا والثانى (وقد وكل إلى نابليون) يسير عن طريق شمال ايطاليا ومنها إلى ڤينا .

خطى نابليون الخطوة الأولى بنجاح فتمكن نابليون بدهائه من حمل (لبيوليو) القائد النمساوى إلى الاعتقاد بأنه سيسير تجاه چنوا وسرعان ما سارت الجنود النمساوية على الطريق المزعوم بمجرد وصول الاشاعة اليهم غير أن نابليون لم يسر فى هذا الاتجاه بل جمع قواته وانقض على الجيش النمساوى فى (مونت نوت) فى ١٢ ابريل وسحقهم فشتت الجناحين يميناً ويساراً وكسر القلب .

وفى ١٤ ابريل قهر فرقة نمساوية فى (ميللسيمو) وأخرى فى (ديجو) ورابعة بجانب (ديجو) .

وفى ٢٢ ابريل وجه ضرباته نحو حلفاء النمساويين من السردينيين فهزمهم فى (موندوفى) .

رأى الجنرال نابليون أن يثير الحماس فى قلوب الفرنسيين فجمع قواده وجنوده وخاطبهم قائلا .

« أيها الجنود .

فى خمسة عشر يوما ربحتم ست مواقع وأخذتم ٢١ علما واستوليتم على ٥٥ مدفعا وخذلتم أحسن جزء فى بيد منت وأسرتم ١٥٠٠ أسير وجرحتم ١٠,٠٠٠ رجل .

كسبتم المعارك بدون مدافع وعبرتم الأنهار بلاجسور وقطعتم المسافات القصية حفاة عملتم كل ذلك وماغذيتم بالغذاء الكافى فبالله انكم لمستحقون شكر وطنكم .

فالجيشان اللذان حاربكما بأمل ردا بيأس ولكن تيقنوا أنكم لم تأتوا بشىء مادامت ميلان وتورين فى أيدى غيركم .

جلى لكم ولى اننا قهرنا الجزء الهام ولكن لا نفخر الفخر كله إلا بعد أن نقهر ما بقى من البلدان ونعبر ما بقى من الأنهار » .

حركت كلمات نابليـون قلوب الجند فما انتهى من كلامه حـتى تفتحت له قلوب القـواد والجنود قـبل فـتـح تلك السـهـول والمدن وكـان من ضـرباته المتـلاحـقـة التى عـاجل بهـا السـردينيين أن تخلـوا عن كل ممرات الالب مع تنازلهم فى ابريل سنة ١٧٩٦م ، عن نيس وسافـوى وانفضوا على الاثر عن محالفة النمساويين .

ويرجع الفضل فى احـراز هذا النصر لما آتاه نابليون من العجـب العجاب فقسم الجيش إلى قسمين حـتى يستطيع أن يهاجم كل فريق على حدة ونذكر فى هذا الظرف الكولونيل رامبـون ورجاله لصدهم حملات الـنمساويين المرة بعد الأخـرى وهم ثابتون حتى النهـاية إذ أقسم وجنوده أفـضلية الموت على ترك الحصن .

ثم هزم جنود بيدمون فاجهز عليها أحـد قواده فتقهقر قائدهم تاركا بين أيدى الفرنسيين ٣٠٠٠ أسير ، ٢١ مدفـعاً فبلغ عدد الاسرى ١٢٠٠٠ أسير ، ٥٢ مدفعا ، احدى وعشرين علما كلها غنائم للجيش الفرنسى .

رأى ملك سردينيا أن خيـر وسيلة يأمن بها شر نابليون عقـد الهدنة معه على شرط أن يمد الاول جيش الثانى بالمؤن والحـصون فقبل نابليون إذ كان فى حاجة شديدة لتلك المؤن .

وفى تلك الأثناء أرسل نابليـون مورات إلى باريس ليـحمل إلى الحـكومة الدير كتـوار الاحدى والعشـرين علما التى غنمـها من النمسـويين والتى من اجلها لقب الجمهـور الباريسى چوزفين (بسيدة النصر) فعـقد الدير كتوار حفـلة عظيمـة وقرر أن جـيش إيطاليا اسـتحق شكر الوطن ثم اقـيمت حـفلة النصر فى العاصمة .

عـبر نابليـون نهر البـوفارتد النـمسـاويون إلى الوراء فواصل نابليـون الزحف ورائهـم حـتى تلاحم بهـم عند جـسـر (لودى) فـاضطر القـائد النمساوى على التقـهقر إلى ماوراء نهر(المانشيو) فـتوغل نابليون فى سـهل (لومباردى) ودخل مـيلان منصوراً ولم يلبث الارشيدوق النمـساوى أن فر منها هاربا .

أما دوقى (بارم) و (مودين) فقدما إليـه الطاعة وغادرها نابليون بعد أن فرض عليها جزية قدرها عشرون مليون فرنك .

وفى فبراير سنة ١٧٩٧م تمكن نابليون من الأستيلاء على(منتوا) وقد كانت محصنة تحصينا شديداً أو معتبرة من المعاقل المهمة إذ كانت مفتاحا للتيرول فدافع النمساويون دفاع المستميت وأرسلوا الحملة بعد الأخرى لصد هجمات الفرنسيين ولكن عبثا حاولوا فتمكن نابليون وجنده من سحق تلك القوات فى عدة مواقع أهمها (اركولا) (وريڤولى) .

أخذت انكلترا تدبر المكائد لاثارة فلاحى لمبارديا على الفرنسيين ولكن نابليون لم يكن بالرجل الذى يغلب على امره فاحتاط لاحباط المؤامرة واتخذ أشد الذرائع لا فسادها وأحرق منازل مدينة (باڤى) ماعدا عدة منازل تخص أكابر العلماء .

قال بعض الكتاب فى هذا الشأن « كان لعمل نابليون تأثير جميل فى نفوس محبى العلم والعلماء . فنقض كلمة ذاك الثائر الوحشى الذى قال للعالم لاڤوازييه حين ساقه إلى الاعدام من ان الجمهورية غير محتاجة إلى العلماء » .

ولما انتهى نابليون من ضرباته هذه ولى وجهه شطر البابا الذى انضم إلى المتحالفين ضد نابليون فكلف القائد أوجيرو بأن يكتسح املاكه وفرض عليه ضريبة قدرها واحداً وعشرين مليون فرنك ثم احتل جزءاً كبيراً من بلاد التيرول وقهر النمساويين مرة ثالثة فأعيتهم الحيله ولكنهم أصروا على عنادهم فأرسلوا جيشا رابعا انضم إلى الثلاثة جيوش الاخرى .

أراد نابليون أن يرسم خطة ينقذبها جيشه من الهلاك والوقوع فى أيدى الجيش المعادى له وقد أخذ التعب من القواد والجنود مأخذه وخسر خسارة ليست بقليلة بعد تلك المواقع المتتالية .

كانت تلك الحيلة التى قام بها نابليون حتى أدخل الرعب فى قلب قائد الجيش النمساوى (النرى) فأرغمه على التقهقر .

أن أمر الجند باجتياز نهر (الاديج) والسير تجاه (ميلان) اعتقد (النرى) ان جيش الفرنسيين يتقهقر ولكن لما رأى قائد الجيش النمساوى أن نابليون يحتل كل ما يقابله فى طريقه هجم بجيشه الذى بلغ أضعاف جيش

الفرنسيين واشتدت نيرانه إلى حد هائل .فسدت الطريق أمام الفرنسيين ورأوا أنه من الصعب محاولة اجتياز جسر (اركولا)

غير أن نابليون قدح زناد فكره ساعة الشدة ولم يستول عليه اليأس وقال لقواده العظام (الظفر أو الموت) وتقدم مسينا واوجرو من كبار القواد وصرخ فيهم قائلا « الستم المنتصرين فى موقعة لودى الا فاتبعوننى » .

كانت موقعة(اركولا) شديدة الوطأة على الفرنسيين فيمكننا أن نقول أنه لولا صدفة غريبة وحظ صادف نابليون لهلك تحت حوافر الخيل واعتبرت تلك الموقعة خاتمة حياته عظم على الفرنسيين فى المبدىء صد هجمات النمساويين ومقاومتهم وسقط كثير من القواد الفرنسيين على الأرض ونابليون من بينهم وقد سقط فى مستنقع فأنقذه بعض الجنود بعد النصب والجهد الشديد .

وفى اليوم التالى بذل نابليون وجنوده جهداً عظيما فعبروا النهر على جسر وقتى وبينما كان النصر يتراوح بين الفريقين بدت لنابليون فكرة اخرى سديدة وهى انه أمر ضابطا فى رتبة ملازم وثلاثين جنديا بأن يأخذوا ٢٥ طبلا ويتقدموا نحو العدو ضاربين على الطبول بمنتهى الشدة فما تعالت أصوات الطبول حتى ظن النمسويون أن نابليون انقض عليهم بجيش آخر من ورائهم فلم يروا من وسيلة الا طلب النجاة .

خرج نابليون من هذه المعركة ظافراً وأنشأ ولا يتين فى شمالى إيطاليا وهما (سيبادان) و (ترانسبادان) ودخل ڤينا واضطر الحكومة النمساوية إلى عقد الصلح والاعتراف بضم البلدان التى كانت الحكومة الفرنسية ترجوها من الحملة تم عقد صلح (كامبو فورميو) فى ١٧ أكتوبر ١٧٩٧م وبه .

١ ـ تنازلت النمسا عن أملاكها فى إيطاليا .

٢ ـ تنازل نابليون للنمسا عن جزء من أملاكها ليست لها بفرنسا علاقة البتة وهى البندقية .

٣ ـ تنازلت النمسا عن البلاد الواطئة واعترفت بالجمهوريات الجديدة التى كونها نابليون فى شمال إيطاليا .

٤ ـ أخذت فرنسا جزائر الايونيان ودلماشيا وشاطىء الرين الايسر .

وإليك الطرق التى سلكها نابليون فى رسم خطط الهجوم أثناء الحملة الإيطالية وكانت سببا فى نجاحه ومن اجلها اعتبرت حروب نابليون فى إيطاليا نموذجا من نماذج الحرب .

١ ـ اتبع الطرق الجديدة والقواعد الحديثة التى ذكرت فى مؤلفات الكتاب الحربيين امثال (جريبوڤال) (وجيبير) .

أ ـ فعمل بطريقة النظام المزودج أثناء الهجوم وكثيرا ما ساعدته تلك الطريقة فى تطويقه العدو فى أى بقعة من بقع ميدان القتال .

ب ـ اقتبس طرق التعبئه ـ وتدريب الجند وفنون الحرب من دراسته الاولى فى مدرستى برين وباريس .

٢ ـ خصص نفسه بتوزيع الفرق على الميدان فقصر (الخطط العامة) عليه وترك (الخطط الفرعية) ليقوم بها الضباط العظام ففضل تجزئة الجيش عن الهجوم به وهو كتلة واحدة .

٣ ـ تصويب المدافع نحو نقط الضعف فى الجيش المعادى والبداية بمهاجمتها .

هذا وتعتبر الحملة الإيطالية فاتحة حروب نابليون المجيدة إذ خرج الجيش الفرنسى منهامنصوراً فأحرزت فرنسا على يديه النصر المبين والفوز العظيم .



الفصل العاشر

نابليون فى مصر

أراد نابليون من اعـداده الحملة المصريـة أن يتوصل إلى الهند فيـغزوها وأن يؤيد نفـوذ فرنسـا في البحـر الأبيض المتوسط وأن ينتـقم لفرنسـا من انجلترا التى اعـتصمت فى جزرها وزادت فى مـعاداتها لفرنسـا وأخذت تبث فيها الفتن .

كـانت انجلتـرا على جـانب عظيم من الثـروة والقـوة البحـرية لاتسـاع مستعمراتـها وكثرة خيراتها وأخذت العلاقات تتـوتر بينها وبين فرنسا حتى اتجهت انظار الاخـيرة عام ١٧٩٧م إلى غزو مـصر لتحـويل تجارة الهند إلى طريق البحر الأحـمر لاعن طريق رأس الرجاء الصـالح وبذلك تخـسر انجلترا الخسائر الفادحة فتهدم سيادتها البحرية .

تلك هى الأسباب المباشرة التى حملت فرنسا إلى القيام باعداد حملة لغزو مصر أما الاسباب غير المباشرةفهى .

١ ـ لم يكن نابليـون يبلـغ الاربعين مـن سنه فلم يصلح للعـضـوية فى حكومة الادارة فرأى فى القـيام بحملة كالحملة المصرية خـلاصه من المشاغل السياسية التى شغلت بال فرنسا .

٢ ـ أراد أن ينسج على منوال الاسكندر الأكبر بطمـعه فى الحصول على شهـرة وذكرى تماثله فرأى أن يوجه نظره نحـو الشرق إذ اعتبـره أنه المجال الواسع لنيل الشهرة الخالدة .

٣ ـ تخيل نابليون أنه بمجرد فـتحه لمصر كان سهلا عليـه فتح ما يجاور مصر من تونس ومكة وبـلاد فارس وبلاد العرب والعجم حتى ضـفاف نهر الكنج .

غير أن فكرة استيلاء فرنسا على مصر لم تكن بنت سنة أوعدة سنين بل ترجع إلى الوقت الذى بدأت انجلترا وفرنسا تتناسان والواحـدة منهما تتحفز

للأخرى وتتحين لها الفرص للإيقاع بها ويرجع إلى الوقت الذى تناصبت فيه الدولتان العداء للتنافس على السيطرة على بلاد الهند ولما وجدت فرنسا الفرصة سانحة أومأت إلى الچنرال بونابرت فى ابريل ١٧٩٨م باعداد الحملة لغزو مصر .

وفى أوائل مايو من تلك السنة تم استعداد الحملة وفى ٤ مايو برح نابليون باريس ومعه چوزفين وفى ٨ مايو وصل إلى طولون وفى ١٩ مايو ابحر نابليون على البارجة (أوريان) بعد أن ودع چوزفين وداعا مؤثراً وقد عرضت عليه أن تسافر معه تلطفا ومجاملة فأبى أن يستصحبها فى هذا السفر المحفوف بالمخاطر .

خرج نابليون فى جماعة من مهرة القواد والعلماء ورجال الفن والمهندسين وكان (برتييه) رئيس أركان الحرب ومن بين القواد (كليبر) و (لان) واستصحب أيضا نفراً من الرياضيين وعلماء طبقات الاض والأثريين والكميائيين وغير ذلك مما يدل على اهتمام القائد العام بالأمور المدنية وعلى رغبته فى أن يكون فتح أرض الفراعنة مخالفا للفتوح العادية فاراد أن يدرس الشرق وشرائعه وعاداته وفنونه ومصنوعاته ومزروعاته ودياناته .

وفى ١٣ يونيو وصل نابليون إلى جزيرة مالطه واستولى عليها بعد نضال عظيم فاستولى على حصن (مالتا) فى نفس اليوم ويعتبر من الحصون المنيعه فى العالم وبمجرد استيلاء نابليون على تلك الجزيرة واصل الاسطول الفرنسى السير إلى مياة الاسكندرية وهناك نزلت الجنود الفرنسية إلى البر دون أن تلقى أدنى مقاومة .

نزلت الجنودالفرنسية فى فصل الصيف فتفشت أمراض العيون بينهم ولكنهم واصلوا السير تجاه دمنهور وحالما علم مراد بك بتقدم نابليون ذهب لملاقاته هو وجيشه عند شبراخيت ، ولكنه رجع بخفى حنين ... رأى مراد بك أن يتقهقر نحو القاهرة حتى يقابل نابليون على أهبة فيصده وظل نابليون سائراً حتى وصل إلى قرية امبابه فى ٢٠ يوليو وفى هذه الليله بات نابليون فى جزيرة الروضة .

وحينئذ تلاقى نابليون بجيش المماليك وانتصر عليهم فى موقعة الاهرام

بعد أن حرك مطامع جنوده وصاح فيهم قائلا « أيها الجنود إن أربعين قرنا تنظر إليكم من قمة هذه الاهرام » .

وفى ٢٧ يوليو دخلت الجنود الفرنسية من باب النصر وفى الثامن والعشرين من يوليو امتلأت القاهرة بالجنود الفرنسية وفر مراد إلى مصر العليا وإبراهيم بك إلى مصر السفلى واذ ذاك علم الاميرال نلسون فوصل فى أول أغسطس وحطم الاسطول الفرنسى فى خليج أبى قير .

ولقد خابت آمال الجنود الفرنسية فى مصر فبعد أن كانوا يمنون أنفسهم بقصور من الرخام وجدوا أكواما من الطين وبعد أن تمنوا الانبذة المعتقة لم يجدوا حيالهم سوى ماء آسن ولقد كان ينكل بهم تنكيلا شديداً ويقتلون شر قتلة كلما نأوا عن معسكرهم كل ذلك كان مدعاة لتأجج نار العصيان فى أفئدتهم إلا أن نابليون تلقى أخيراً الكارثة فى القاهرة بكل هدوء وسكينة فجمع ضباطه حوله وخطب فيهم قائلا « إن بلادا كمصر ذات مجد تليد وعز غابر مجيد لتحاول أن تسترد ما كان لها من مجد بفضل ما وصلت إليه العلوم والصناعات من تقدم ورواج » ولقد أشار نابليون اذ ذاك إلى الموارد الكافية فى مصر المفعمة بالخير والتى لاتزال مفتقرة إلى مستثمر حكيم ثم ذكر مناعة مركزهم فى مصر قائلا « ان ليس لها حدود ثابتة وإن ساحلها منخفض من جهة اخرى ثم أوصاهم أن يحافظوا على وحدة الجيش وحضهم على فعل ما يرفع من شأنهم وختم حديثه بعبارات تدل على حصافة عقله وزلاقة لسانه فقال « أن علينا أن نرفع رؤوسنا فوق طوفان الحوادث الجلى التى تحيط بنا وتغمرنا وواجبنا يدفعنا أن نجعلها مركبا ذلولا وليس ببعيد أن يكون القضاء والقدر قد كتب لنا أن نغير خريطة الشرق وأن تنقش اسماؤنا بجوار اسماء الألى الذين ازدان بهم جبين التاريخ فى العصور القديمة والقرون الوسطى » .

أراد نابليون الزحف على الشام لامور شتى منها سهولة فتحها لما بها من قلاقل ولرغبته فى تقويته الحدود المصرية الشرقية ولسلب انجلترا قاعدة بحرية ولتمهيد الطريق للزحف على آسيا الصغرى وتركية أوروبا وفوق كل

هذا سيقف نابليون للمرة الثالثة موقف المصلح الكبير فيتقدم لانقاذ الشام من حكم الطاغية الجـزار كما أنقذ ايطاليا من النمســا وكما أنقذ مصر مـن قبضة المماليك .

سارت الحملة السورية تحت شمس محرقة وتراها يهددها الظمأ والجوع وانتشـار الطاعون وانتهت الحـملة بهزيمته عنـد أسوار مدينة صغـيرة ولولا ذلك لا كتسح نابليـون فى أول الامر بجيشـه الصغير كل ما اعـترض طريقه فاخـذ العريش واسـتولى علـى يا فا ثم سـار إلى عكا مقـر الجزار وطوقـها بالحصـار فى ١٩ مارس سنة ١٧٩٦م وكان السـير سدنى سمـيث والمسبب لهزيمة نابليون قد تمكن من ذلك بفضل المقدرة العلمية التى امتاز بها المهندس الفرنسى (بيكاردى فلبـو) من حزب الملكيين الناقمـين على الثورة وفى ٢٠ مارس رفع الحـصار عن عكا لتفـشى الطاعون فى المعسكر الفـرنسـى ولقرب نفاذ المؤن والذخـائر لهذه الاسـباب ولارسال حـملة تركيـة فأسـرع نابليون بترك الشام راجعاً لمصر .

وكان انـتصـار الفرنسـيين على الاتراك عند أبى قـير فى ٢٥ أغـسطس عظيما ولاعجب إذ محا انتصار أبى قـير عار هزيمة عكا ويعزى هذا الانتصار إلى حسن القيادة والاقدام والمعدات والعزم الصادق .

وقبل تلك الموقعة بنحومن شهرين عزم نابليـون على مبارحة مصر خفية لانباء سمعـها تنبىء عن سوء حالة بلاده فأسرع للزود عن حياضـها يختلج فـؤاده بشىء من المطامع الشـخصـية لذلك أقلع نابـليون ليلة ٢١ أغـسطس ورفقته منج وسبعة ضباط من أقدر رجاله .

النتائج : كانت النتيجة من الوجهة الحربية هى فشل الحملة تماما .

أما مـن الوجهة الـعلميـة فقد نجـحت الحمـلة وأسفـرت عن فوز مبـين فأوجدت فى مـصر الجامعة المصرية التـى قسمت إلى خمس أقسام غـرضـها دراسة مـصر من حـيث التربة وأسـباب تفـشى الأمراض وأتى نابلـيون إلى مصر لينشر نظم الحكومات المتمدينة وأتاح للغرب دراسة مصر دراسة علمية ولقد تكلـم نابليون مخـبراً عن تسيـيره (ديزيه) إلى الوجـه القبلى لتـعقب

المماليك » للمرة الاولى منذ الامبراطورية الرومانية شرعت أمة كلفة بالعلوم والمعارف تبحث وتنقب عن الحزائب الفخمة التى أسرت الباب الجماعات المتنورة منذ قرون .

ولا ريب أن حجر رشيد المكتوب بثلاث لغات احداها اللغة المصرية القديمة كان السبب الاكبر فى اكتشاف ماتضمنته الآثارالمصرية العتيدة والمقابر الفرعونية الرائعة ولقد وجده ضابط فرنسى وبه عرف شامبليون مفتاح اللغة الهيروغليفية ولا ريب أن كتاب وصف مصر الذى ظهر سنة ١٨٢٨م يصف ما شاهده العلماء الذين رافقوا الجيش كان أول وصف علمى لتلك البلاد وكانت قناة السويس من تصميم الحملة الفرنسية لتوصل البحرين الاحمر والابيض.

وعلى كل فحكم الفرنسين لم يكن خلوا من الفائدة فلقد أنقذوا مصر من حكم المماليك ومظالمهم المرهقة .

ولا يخفى أنه لو نجحت الحملة فى الاستيلاء علي مصر لاختل التوازن الدولى إذ كان من الممكن أن يترك نابليون الاسطول الإنجليزى يروح ويغدو على مقربة من الاسكندرية ويعود هو الى المانش فينقض على الشواطىء الانجليزية ويقضى على حكومتها وكان من الممكن أيضا أن ينتج عن فتح مصر شق قناة السويس وتحصينها وتجهيز حملة للسير إلى الهند للانضمام إلى قوى المهراجا لطرد الانجليز من مملكاتهم فى الشرق .

ولم تكن فكرة الاستيلاء علي مصر وليدة حكومة الادارة فلقد كانت فرنسا تعتبر مصر منذ عهد سان لويس وحروبه الصليبية درة الشرق الادني وكانوا يعلمون بضعفها وإن حكومتها فى أيدى المماليك الطغاة .

وكان « ليبنتر » قد اقترح على لويس الرابع عشر الاستيلاء على وادى النيل ويعتبر « ليبنتر » هذا أشهر فلاسفة الالمان كما كانت من فكر «شوازيل» أمهر وزراء لويس الخامس عشر وفضلا عن كل ذلك فان فتح مصر سيكبد انجلترا متاعب شتى وقد خصص لغزو مصر وتموين الحملة ثلاثة ملايين فرنك .

ظل نابليون متتبعا ابراهيم بك فقابله في الصالحية وهزمه واستولى على المنصورة ودمياط ثم توجه إلى مصر العليا فبعث نابليون بأحد قواده يدعى « ديزيه » للحاق بمراد بك بمصر العليا فسار بطريق النيل حتى وصل إلى الاقصر ولماتم له اخضاع مصر العليا توطد ملكه فى جميع انحاء مصر .

وفى ٢٣ اغسطس حصلت قلاقل فى القاهرة قمعها نابليون بنفسه وبعد أن قام نابليون بحملته إلى الشام وعاد مخذولا لتفشى الطاعون بين جنوده رجع إلى المطرية .

ثم أرسل الاتراك جنودا بجوار أبى قير نحوا من ١٨٠٠٠ جندي تحت قيادة مصطفى باشا فقهر الاتراك وظل الاسطول الفرنسى يحمى الشواطىء الفرنسية .

وبذلك ترك نابليون مصر وسافر إلي فرنسا ونصب القائد كليبر بدله ولم ينل كليبر هذا من العلم قسطاً وافراً درج من اسرة فقيرة ولم يكن سياسيا محنكا بل كان متعجرفا لا يسعه الا اصدار أوامره ورغبته في تنفيذها دون التفكير عما قد ينجم عن فعله .

كانت حالة الجنود بعد أن تركها نابليون سيئة جداً فقسمت إلي شيع وأحزاب : فريق رغب فى الرجوع إلى فرنسا ومنهم كليبر لحبهم لنابليون ولسوء حالة البلاد وتفشى الطاعون بها وفريق رغب فى البقاء .

كان سدنى سميث قائداً للاسطول الانجليزى فاتفق ويوسف باشا أن يرجع الجيش الفرنسى إلى فرنسا دون أن يلحقه ضر وتسمى تلك باتفاقية العريش (٢٤ ينساير سنة ١٨٠٠م) وقد وافق كليبر على الجلاء عن مصر على شريطة أن تنقل جنوده إلى فرنسا على حساب انجلترا غير أن كيت أصر على الجلاء بلا شرط مطلقاً .

ولذا غضب كليبر ومزق المعاهدة فى وجه الضابط الذى حملها إليه فكانت النتيجة أن اشتبكت الحرب مرة أخرى بين الفريقين وكانت سجالا وانتصر كليبر على جنود الحلفاء (الإنجليزى والأتراك) عند هليوبوليس في ٢٠ مارس ثم أخذ فى تنظيم البلاد داخلياً كما فعل نابليون من قبل إلى أن قضى عليه بطعنة من يد حلبى فى القاهرة يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠م .

ولما انقضت مهمة كليبر بوفاته خلفه الجنرال (مينو) ولم يكن علي شيء من مقدرة سلفه فازدادت الحالةسوءاً على يديه وكثرت المشاغبات بين الضباط والجنود لعدم إطاعتهم أوامره فعقب هذا الخذلان أن وافق مينو علي جلاء جنوده عن مصر بصلح (أميان ١٨٠٢م) وبه أعيدت مصر إلى حكم العثمانيين وبذلك فقد مكثت الحملة الفرنسية ثلاثة شهور وثلاث سنوات .

جارى نابليون أثناء مقامه بمصر سلفه الاسكندر لما أتى مصر وزار معبد آمون فرأى نابليون ان الأمة المصرية أمة استمسكت بدينها وتعلقت بإسلاميتها فكان يجلس بالجامع الأزهر كعالم من العلماء ينصت لشرح القوانين ويستمع للتفسير وقد مثل الخشوع والورع فى جلسته وبدأ يسأل فيما تعنيه بعض المسائل الواردة فى كتاب الله وكان يدهش العلماء عند تقديسه لإسم النبى محمد كلما ذكر حتى صدق فيه اعتناق الإسلام .

★★★

الفصل الحادى عشر

حروب القنصلية الاولى

ذكرنا فيما سبق شيئا عن المؤامرات والمكائد التى كانت تدبر للغدر بحياة نابليون وقد كثرت هذه المؤامرت إلى حد أن بات يخشى على حياة القنصل الاول ولعل (مؤامرة الاوبرا) كانت أشدها خطراً وتسمى تلك المؤامرة أيضا (بمؤامرة ٣ نيقوس) أو ٢٤ ديسمبر ١٨٠٠م - حيث خبئت قنبلة فى احدى الشوارع التى سيخترقها القنصل الاول عند مروره فى عربة وكم كان غريبا أن يسلم نابليون من شر تلك القنبله بأعجوبة فقد أصابت (الاوبرا) ولم تمس نابليون بسوء .

أخذ نابليون يضرب بيد حديدية وقلب قاس على زمرة المهيجين وجماعة الثائرين فأغلق كثيراً من الصحف حتى بلغت اثنى عشرة صحيفة عام ١٨٠٠م فى باريس واظهر احتقاره الشديد لجماعة الصحفيين والمؤلفين والمحامين فقال عنهم « أكوام الثرثرة والثورة » ووجد الا يترك أى طبقة من طبقات الامة تعمل بحريتها .

ولكن سرعان ما تبدلت الحالة وانقلب العسر يسرا فأمن المسافر وسلم الفلاح والصانع وباتوا جميعا بلا خوف ورقص الشعب فى الحقول طربا وغنوا أناشيدهم كما سبق غنوها قبل الثورة حتى قال « ريچنولت دى سانت چان دى انجلى » يصف حالة فرنسا وقتئذ « ليست فرنسا فى حاجة تطلبها من الأله اللهم إلا الشمس والمطر وخصوبة الارض » .

ولما رأى نابليون أن النظام قد استتب داخل البلاد وجه همه إلى الحرب مع انجلترا والنمسا اللتان اخذتا تناصبانه العداء .

لم تكن معاهدة (أميان ١٨٠٢م) ذات حل حاسم فان نابليون مارضى بشروط تلك المعاهدة الا ليخلص من المأزق الحرج الذى وقع فيه إذ ذاك وأخذ

يتحين الفرص حتى إذا سنحت له نقض المعاهدة وعمل على الإيقاع بانجلترا ومن جهة اخرى خشيت انجلترا اتساع ملك نابليون ومد نفوذه على القارة الاوروبية مما أصبح يهدد انجلترا فشمال ايطاليا وسويسرا وهولندا وپارما والبا كانت كلها تحت حمايته .

كانت النمسا حليفة لانجلترا فرأى نابليون أن يباغت الجيوش النمساوية أولا فسار عن طريق سويسرا واجتاز جبال الالب وانقض على الجيوش النمساوية وهزمها فى موقعة « مارنجو » يونيو ١٨٠٠م ثم أخذ يطارد النمساويين والنصر حليفه فى عدة وقائع انتهت بهزيمتهم فى موقعة «هوهنلندن » ديسمبر ١٨٠٠م .

وجد الامبراطور النمساوى أن خير وسيلة يأمن بها شر نابليون وجنوده عرض الصلح عليه ولم يتردد نابليون فى قبول صلح « لونيڤيل » فبراير عام ١٨٠١م .

وشروطه هى : ـ

١ ـ استولى نابليون على الجمهوريات الثلاث التى أنشأها فى هولندا وسويسرا وايطاليا .

٢ ـ ضمت بيدمنت إلى فرنسا .

ولما قبل نابليون هذا الصلح لم يجد أمامه سوى انجلترا فأخذ يعد العدة للقضاء على جيوشها .

رأى نابليون أن البحرية الفرنسية ضعيفة فعرض على الدانمارك وروسيا والسويد وبروسيا تكوين حلف بحرى عام ١٨٠١م غير أن قبول نابليون لصلح أميان فى مارس سنة ١٨٠٢م غير عقد التحالف وشروط صلح أميان هى :

١ ـ تركت انجلترا لفرنسا كل مانالته منها وحلفائها عدا ترنداد ورأس الرجاء الصالح .

٢ ـ تعهدت اتجلترا برد جزيرة مالطة إلى فرسان القديس يوحنا ومنورقة إلى اسبانيا .

٣ ـ تعهدت فرنسا بترك مصر لسلطان تركيا .

الفصل الثانى عشر

حروب نابليون الامبراطور

ذكرنا من بين شروط معاهدة أميان أن انجلترا تعهدت برد جزيرة مالطة إلى فرسان القديس يوحنا غير أن انجلتـرا عادت فنقضت هذا العهد ورفضت الجلاء عن الجزيرة أخذ نابليون يتحرش بانجلترا التى قامت تكون حلفا ضده ومن ثم بدأ النزاع العظيم الذى انتهى بـتداعى الامبراطورية الفرنسـية وبنفى نابليون .

نظرت النمسا بعين الحاسد إلى نابليون فقد عز عليها اتساع ملكه وازدياد قوته وبجانب النمسـا تجد روسيا وبروسيا وقد شعرتا الشعور عينه .

فعرضت انجلترا على الثلاث دول التحالف معها وأظهرت مد يدها بالمال الكثـير لـو اتحدت بجـانبـها وفى صـيف ١٨٠٥م كـونت النمـسا وانجلتـرا وروسيـا حلفا ضد فـرنسا أمـا بروسيا فلم توافق علـى هذا الحلف وخرجت منه.

كـانت قاعـدة نابليـون فى الحـرب « الوقت كل شـىء » فـأصدر أوامـره باعداد المعدات والتـأهب للقتال مع الدول المتحـالفة ضده وسرعـان ما طيرت تلك الاوامر من بولونيا إلى باريس فالولايات الالمانية فـايطاليا فقواده البريين والبحرين وماكاد اليوم الثـامن والعشرين من أغسطس ١٨٠٥م حتى تحركت فلول جيشه وبعد مضـى شـهر من هذا التاريخ عبر نابليون وجنوده نهر الراين وفى ٧ أكتـوبر أى بعد مضـى سـبعة أيام من عـبور نابليون لنهـر الرين كان الجيش فى باڤـاريا لاقى نابليون الصعـوبات من رداءة الجو وتغيره غـير أن هذا لم يعـقه فى سـبـيله فكان على صـهوة جـواده ليل نـهـار وسط الجنود وحذاءه بقـدميـه ولم يخلعها إلا بعـد أسبـوع والجنود واقفه والجلـيد يغطى أرجلهم إلى ركباتهم .

وبعد أربعة أيام من هذا التاريخ سلم القائد النمساوى (ماك) وجنده فى موقعة (ألم) وقد غنم بعد هذه المعارك ستين ألف أسير ومائة وعشرين بندقية وتسعين علماً وأكثر من ثلاثين قائداً فى حين أن نابليون لم يخسر سوى ١٥٠٠ جندى معظمهم من الجرحى .

وجد نابليون أن أبواب ڤينا مفتوحة أمامه فلم يجد مانعاً من دخولها فلما علم الامبراطور النمساوى بذلك فر وحاشيته إلى (برن) على بعد ثمانين ميلا من شمال ڤينا حتى يلتجأ إلى الروسيين (تحت قيادة اسكندر الاول) الآتين من برلين ويحتمى بهم

اتبع نابليون أعداده واشتبك معهم فى عدة وقائع كانت (أوسترلتز) ديسمبر ١٨٠٥م نهايتها وقد خرج نابليون من تلك المعركة فخوراً منصوراً .

اضطرت النمسا عقب موقعة (أوسترلتز) من عقد صلح مع فرنسا فوقعت معاهدة (پرسبرج ٢٦ ديسمبر ١٨٠٥م) وشروطها كالآتى : ـ

١ ـ نزلت النمسا لفرنسا عن البندقية ودلماشيا وأوستريا والتيرول .

٢ ـ اعترفت النمسا (باتحاد الرين) الذى شمل باڤاريا وورتمبرج وبادن وعدة ولايات أخرى .

٣ ـ أجبرامبراطور النمسا على التخلى عن لقب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

بروسيا ونابليون : انضمت بروسيا إلى جانب الحلفاء ضد نابليون لما رأت من شدة مطامعه وسلوكه سياسة معادية لها ونقضه عهوداً وعدها بها لم ترض بروسيا بالانضمام إلى الحلفاء فى بادى الامر فصادقت نابليون وطلبت منه أن يضم إليها (هانوفر) فتصل إلى مرتبة الامبراطورية .

ثار غضب الشعب البروسى لما رأى الجيوش الفرنسية فى جنوب وغرب ألمانيا وبسط سلطان نابليون على ايطاليا بخلعه أسرة البربون من نابلى ومفاوضة نابليون انجلترا سراً لأعادة هانوفر إليها .

ازداد هياج الشعب البروسى وأعلن الحرب على نابليون فى أكتوبر ١٨٠٦م فاتخذ نابليون هذا ذريعة وباغت الجيوش البروسية وهزمها فى

موقعة (چينا) إلى يمين (أرستادت) فى أكتوبر ١٨٠٦م مع العلم أن الجيوش البروسية كانت أضعاف الفرنسية ولكن تمكن نابليون من تشتيتها نحو الالب .

وفى ٢٥ أكتوبر ١٨٠٦م كانت الجنود الفرنسية على أبواب برلين ودخلتها وفتحتها فى السابع والعشرين منه ولقد كان بألمانيا اثنى عشر ألف رجل من المهاجرين الفرنسيين غادروا فرنسا أيام النزاع الدينى وصدور مرسوم (نانت) وكلهم من البروتستات فقابلهم نابليون برفق وثغر باسم .

شرع نابليون فى تقسيم المانيا أثناء وجوده بها فضم سكسونيا إلى ممالك (اتحاد الرين) وأنشأ مملكة وستفاليا ونصب جيروم أحد أخوته ملكا عليها وأصدر (مرسومات برلين) : معلنا محاصرة الجزر البريطانية لتضييق الخناق على تجارتها .

رجع ملك بروسيا بجيوشه إلى جنوب خليج (دانزج) وتقابل بجيش قيصر الروسيا الذى أتى لنجدته الا أن نابليون هزم الحليفتين فى موقعة (ايلو) ٨ فبراير ١٨٠٧م وفى ١٤ يونيو هزم الجيشين فى (فريدلند) وإلى هنا وقفت الحرب وذهب نابليون تواً إلى (تيلست) وتقابل بامبراطور الروسيا وملك بروسيا للاتفاق سويا على رسم خريطة أوروبا من جديد .

استغرق هذا العمل أكثر من أسبوعين وتمت معاهدة (تيلست) فى ٧ يوليو ١٨٠٧م .واشتملت على الشروط الآتية : ـ

١ ـ اعترفت بروسيا بمملكة وستفاليا وتخلت عن أملاكها غرب الالب .

٢ ـ تنازلت بروسيا عن ممتلكاتها فى بولنده إلى ملك سكسونيا وقبلت تحديد عدد جيشها .

٣ ـ وافق قيصر الروسيا (اسكندر الأول) على تنفيذ النظام القارى (محاصرة الجزر البريطانية) وعلى التغيرات التى أحدثها نابليون فى المانيا .

٤ ـ تعهد نابليون بالأنضمام إلى قيصر الروسيا ضد تركيا ومساعدته فى الأستيلاء على قنلنده ووادى الطونه .

وقد كان صلح تيلست هذا أقصى حد لاتساع سلطان نابليون وياليته

اكتـــفى به واهتم بـشـؤون البـلاد الـداخلية حـــتى يكون قـــد أمن خلود الامبراطورية له ولنسله من بعده إلا أن مطامعه لم توقفه عند حد وغرامه فى السلطان لم يكن له نهاية .

نابليون وايبريا : لم تعمل ايبريا (ولايات البـابا) بالنظام الذى فرضه عليها نابـليون وعلى غيرها من مقـاطعة التجارة الانجليـزية فكانت هى المنفذ الوحيد لتلك التـجارة فأراد نابليون أن ينتقم لنفـسه منها فأعلن تبعـية أملاك البابا لفرنسا فحرمه البابا من غفران الكنيسة .

غير أن نابليون أثار شعور الشـعب الكاثوليكى فقبض على البابا وأودعه السجن فثارت ثائرة الشعوب لاعتبارها أن فى ذلك مس لكرامتها فهبت تدافع عن كرامتها وتذود عن حياضـها .

نابليون واسـبانيا : كـانت تلك الحـرب التى اسـتعـرت فى ايبـريا بدء الكوارث التى انتـهت بضيـاع سلطان فرنســا الواسع الاطراف فـان اسبانـيا والبرتغال أخـذتا تدافعان دفاعا مـجيدا انحطت أمامه قـوى نابليون وأضاعت شيئا من هيـبتة وصيته عين نابليون أخـاه يوسف بونابرت ملكا على أسبانيا فـثارت ثائرة الاسـبانيـين لتـولى غريب عنهم حـكم بلادهم وساعـدهم على نجاحهم طبيعة بلادهم وتقسيمها بالجبال فقسمت الجنود الفرنسية وبات من الصـعب لم شعـثهم وزاد الامـر خطورة تدخل انجلتـرا فسـيرت حـملة إلى لشبونة فى اغسطس ١٨٠٨م بقيادة (ولزلى) فـهزمت القوات الفرنسية عند (ڤمييرو).

رأى نابليون أن خير طريقة يحتاط بها لنفسه من دول أوروبا وغدرها ان يلتقى بالاسكندر قيصر الروسيـا ويجدد معه الصداقة وتم له فى (أرفرت) سـبـتـمـبـر ١٨٠٨م وتم له اخـضـاع الـبلاد وطـفق يدخل النظم الـحـديثـة والمشروعات المصلحة فى بلاد ليست من المدينة فى شــىء غير أن الاسـبانيين أظهروا كل العداء للفرنسيين وألحوا فى طلب الاستقلال .

النمسا ونابليون : رأت النمسا أنه قد نالها الغبن وأصبحت تعانى الآلام عقب معـاهدة برسبرج وصلح تيلست فرأت ان الفرصـة قد سنحت للتخلص من نابليون خصـوصاً انه متعب عقب الحـملة الاسبانية فـأعلنت عليه الحرب فى ٦ أبريل ١٨٠٩م ولم توجه النمســا قواتها إلى فرنسا فـحسب بل وجهت

جيوشـا إلى الروسيا حليفة نابليـون واخرى إلى ايطاليا وغيـرها إلى فرنسا ولكن نابليون عاجل النمـساويين بضرباته فارتدوا متقهـقرين ودخل فينا فى ١٣ مايو ١٨٠٩م وضـربهم أيضا فى موقعـة (إسبرن أيسلنج) ثم انتـصر عليـهم وسـحـقـهم سـحقـا فى مـوقـعـة (واچرام) فى ٦ يوليـو ١٨٠٩م واضطرات النمسـا إلى قبول صلح (شـينبرون) ٤ أكتـوبر ١٨٠٩م وقبلت الشـروط الآتيـة :

١ ـ تخلت عن سلربرج وضـمت إلى اتحـاد الرين ونزلت أيضا عن جـزء من بوهيميا .

٢ ـ أعطت كراكوا وغاليسيا الغربية إلى ملك سكسونيا .

٣ ـ استولت فرنسا على تريستا وكرواتيا ودلماشيا .

٤ ـ أخذت الروسيا جزءا من غاليسيا الشرقية .

الحملة الروسية : لم يقم نابليون بمساعدة الروس ضد التـرك كما تعهد فى «صلح تيلـست » ولم تنل الروسـيـا من وراء النظام القـارى الا الضـيق الشديد الذى حل بأهلهـا كما أن نابليون أصـبح لا يعبأ بمصالح الروسـيا بل وجه جل همه لخدمة النمسا بعد أن تزوج بمارى لويز .

كانت تلك الأسباب دافعة للروسـيـا على نقض معاهدة تيلست وعدم تنفيذ النظام القارى بل وفتح الثغور الروسية للمتاجر الانجليزية .

ولما رأى نابليون هذا التناقض العظيم لسياسـته شن الغارة على الروسيا كى يحافظ على تنفيذ خطته .

جهز نابـليون جيشه فى شـهر مايو ١٨١٢م وسار به إلى الـروسيا فى يونيو واشتبك الجيشـان عند نهر « بروديتو » وكانت الحرب سجالا ثم أخلى الروس الطريق لنابليون وجـردوا المدن من المؤن وكل ما يحتاج إليـه نابليون فى طريقه وظل نابليـون مواصلا السيـر حتى دخل موسكو فوجـدها ساكنة خاوية على عروشـها بقى نابليون منتظراً خـارج أسوار المدينة بغير ما جدوى وقد كان ينتظـر عقد صلح ولكن عبثـا حاول فقفل راجـعا بعد أن ذاق وجنده برد الروسيا القارص .

غير ان انخذال نابليون يرجع إلى دخـوله فى أرض لم تألف جنوده فيها

القتال وصادف أن لازمه صداع فى يوم موقعة « بروردينو » أو « مسكوفا » كما سماها الفرنسيون وقد اضطر الا يغادر خيمته مصدراً أوامره حسب التقارير التى كانت تقدم إليه .

لم يجد نابليون شيئا أسلم له إلا العودة إلى فرنسا سيما وقد حاول عقد صلح مع القيصر اسكندر الاول الذى لما علم بذلك قال « لا يمكننى امضاء أى صلح إلا بعد الجلاء التام فلا أود أن أرى جنديا فرنسيا باقيا على أرض الروسيا » ازدادت الحالة سوءا فلا طعام ولا ذخائر زد على ذلك ازدياد الجنود الروسية حول موسكو وحصارهم المدينة .

وفى ١٩ اكتوبر غادر موسكو مائة وخمسة عشر الف جندى من الفرنسيين يتبعهم اربعون الف عربة محملة بالجرحى وفرسان القوازق من خلفهم يطاردونهم وتنزل سماء الروسيا عليهم صبارة القر وقدمات الآلاف من الجنود قبل وصولهم إلى « سمولنسك » .

ويضيق بنا المقام أن نذكر هذا السير المخيف المملوء بالوحشة والرهبة عند ما قاربوا (برسينا) فقد تعالت أصوات الجنود الفرنسية بل ونابليون نفسه من ألم الجوع .

هذا ولولا عناية المارشال « ناى » لما بقى لنابليون جندى واحد فاليه وحده يعزى خلاص البقية الباقية من الجنود الفرنسية غير أن نابليون لم يشعر بأنه هزم أو خذل بدليل قوله .

« أن الروسيين لا الفرنسيين هم الذين قاسوا وخذلوا فموسكو مدينتهم العظيمة وعاصمة بلادهم هى التى حرقت وحقولهم ومدنهم هى التى دمرت لم يلحق جيش الروسيا بجيشى ضراً .

بل برد بلادهم القارص . وفرسان القوازق هما العاملان فى الحاق الضر بجيشى ولكن أى ضر أنى سأعوض ماقد فسد : فأنى اجهز حملة للقيام بها فى هذا الربيع » .

ولما وصلت أنباء الكارثة التى حلت بنابليون وجنوده وجدت بروسيا أن الفرصة سانحة للانتقام لنفسها من نابليون الذى الحق الضر بها فقيد

متاجرها وانزل بها الخسائر الفادحة فى موقعة (چينا) فانضمت إلى الروسيا واتفقتا سويا على القضاء على سلطان نابليون فى أوروبا وتسمى تلك المعاهدة بمعاهدة « كاليش » .

أخذت بروسيا تعمل على اعادة الحرية إليها وكان رائدها فى هذا السبل (شار نهر ست) و(ستين) رأى شار نهر ست ان عدد الجيش البروسى محدود كما تبين لنا فى معاهدة تيلست فلم يكن ذلك حجر عثرة فى سبيله فأخذ ينظم جيشا على احدث الطرق والنظم الحربية .

ولا نغالى إذا قلنا انه درب كل بروسى على القتال ولم يأت شهر مارس ١٨١٣م حتى كان الجيش البروسى على اهبة تامة للقتال مع الفرنسيين هذافضلا عما قام ببروسيا من الاصلاحات الادارية ونهضة التعليم فيها ويرجع الفضل فى ذلك إلى (ستين) الذى أخذ على عاتقه اصلاح البلاد اداريا و(همبوات) الذى بث بذور الوطنية حتى أظهر الشعب البروسى على يديه العجاب من مظاهر الحماس المتأجج والغيرة الصادقة .



الفصل الثالث عشر

طالع النحس

أخذت تدب فى دول أوروبا روح جديدة فتحالفت الدول المعادية لنابليون وخرجت لقتاله ولكنه انتصر عليها فى عدة وقائع أهمها (لوتزن) و(بوترن) غير أن نابليون لم يعتبر انتصاره هذا انتصاراً فرأى أن خير وسيلة يلم بها شعث قواه ويتأهب بجيش كبير للايقاع بالجيوش المعادية له عرض السلم على تلك الممالك .

ولكن النمسا انست من نابليون ضعفا فاشترطت أن يعيد إليها ما اغتصبه منها فرفض نابليون أى شرط ولم يقبل أن ينزل على أدنى بقعة من أى اقليم شاده على أسنة الحراب وبذلك كونت النمسا والسويد وبروسيا معاهدة « ريشنباخ » ٢٧ يونيو ١٨١٢م .

وكانت النتيجة أن الجيوش الفرنسية أخفقت فى جميع الميادين ماعدا موقعة « درسدن » وظلت جيوش الدول المتحالفة تطارد الجيوش الفرنسية بعد أن أنزلوا بها النكبات فاضطر نابليون إلى التقهقر إلى ماوراء الرين .

أخذت دول أوروبا منذ ذلك الحين تعمل على التخلص من سلطان نابليون فهبت كلها تطلب حقوقها ولا ترضى الا برجوع ما اغتصبه منها نابليون .

ففى اسبانيا نرى « ولزلى » ينتهز فترة الضعف هذه وينقض بجيوشه على الحامية الفرنسية ويهزمها فى موقعتى « سلامكنا » و « فتوريا » واستولى على « مدريد » نفسها بعد أن سحق الجيوش الفرنسية سحقا واضطرها إلى التراجع إلى ماوراء جبال البرانس .

ولم يكن هذا الشعور شعور الدول المعادية فقط بل كان شعور الفرنسيين أنفسهم فتغيرت فرنسا تحت تأثير الضحايا المتوالية التى هلكت فى بلاد الروسيا وبروسيا وإيطاليا والنمسا واسبانيا وقد ساورهم الشك انفسهم فى « ان نابليون هو الرجل الأنانى الذى سخر الفرنسيين لارضاء مطامعه

وشهـواته » فأعلنت فرنســا انها ترغب فى السلام وقــد باتت تئن تحت عبء عظيم من الضنك والاعسار الشديد .

عرضت الدول المتـحالفة صـلـحا شريفـا يقضى بأن يبقى لنـابليون ملك فرنسا بحدودها الطبيعية فى (فرانكفورت) نوفمبر ١٨١٣م . ولكن نابليون لم يطأطىء رأسه امـام قضاء القـدر فرفض قبـول الصلح قبل عرضــه عليه وفضل أن يتحمل النكبات على أن يرضى بهذه الشروط المهينة .

ولما رأى الحلفاء تمسك نابـليون الشديد وتعـصبه تعاهدت جـميعـها فى معاهدة (شومنت) مارس ١٨١٤م .

وشروطها كالآتى : ـ

١ ـ محاربة نابليون لرفضه طلبهم فى ارجاع فرنسا إلى حدودها القديمة قبل الثورة .

٢ ـ أن تعمل بتـلك المعاهدة مدة عـشرين سنة حـتى يستـتب السلام فى اوروبا .

واصلت جنود الحلفـاء الزحف إلى باريس وبعد عـدة وقائع كـان النصر فيهـا حليف الدول المعادية لنابليون سقطت (باريس) نفـسها فى أيديهم فى ٣١ مارس ١٨١٤م .

أخذ نابليون يشجع قواده وجنوده فـدعاهم لمواصلة الجهاد وأوصاهم الا يتسرب اليأس إلى قلوبهم ولكن بغير ماجدوى .

فوجـد نابليون أن فـرنسا قـد تداعت أعصــابها وانحطت عـزيمتــها وفى (فونتنبلو) تنازل نابليون عن عرش الامبراطورية لابنه ملك روما وترك لقب امـبـراطور وأخـذ بدله لقب ملـك جـزيرة (البـا) وكـان ذلك فى ١٤ أبريل ١٨١٤م .

وحالما غادر نابليون فرنسا دخل (لويس الثامن عشر) باريس وبذا أعيد عرش فرنسا إلى أسرة (البـربون) وأمضى معاهدة باريس الاولى ٣٠ مايو ١٨١٤م فأجاب طلب الحلفاء وأعاد فرنسا إلى حدودها الطبيعية قبل الثورة .

سافر نابليـون إلى جزيرة البا بين مظاهر العداء فـبلغت الوقاحه ونكران

الجميل بجماعة الذين عادوا مع الملك لويس الثامن عشر البربونى أن حطوا من شأن الانتصارات العظيمة التى كللت جبين فرنسا على يد نابليون غير أن الملك الجديدقرر ابعاد اولئك القواد العظام وعين بدلهم شبانا ليس لهم إلا شرف المحتد وأشد ما أدمى عيون اولئك الابطال أنهم أخذوا يرون تهاون الحكومة الملكية الجديدة فى منحها المواقع الحصينة والمدافع الضخمة والسفن الحربية للمتحالفين وغير ذلك من منح الاوسمة يمينا وشمالا مع أنهم لم ينالوها إلا بعد استهدافهم للموت آلاف المرات .

تسلم نابليون ادارة جزيرة البا فأخذ يصلح الطرق : ومناهج التعليم وعمل على انهاض التجارة وتشجيع الصناعة فما مضت بضعة شهور حتى ظهرت آثار الاصلاح فى أبهى مظاهرها .



الفصل الرابع عشر

عودة نابليون ـ النضال الاخير

انتظر نابليون حـتى تسنح الفرص ، فأخذ يستطلع نجـم فرنسا ويتنسم أخبـارها من وراء البحر فعلم بـالنزاع القائم بين الحلفاء على توزيع الغنيـمة وبسـخط الامة من الـحكم الملكى الـجديد الذى أخذ يشتد ويتفاقم .

كانت تلك العوامل مساعدة لنابليـون على مبادرته بالهرب إلى فرنسا فى ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥م فأبحر من الـجـزيرة مع جملة من رجاله القدماء على الباخرة (انكونستـان) عائداً الى فرنسا وبينما كان مبحـراً أبصرته البارجة (زفير) فتقدمت نحوه للاستـيضاح ولما أبصرت علم جزيرة البا سأل ربانها عن نابليون فأجاب نابليون نفسه « أنه على ما يرام » .

وفى أول مـارس سنة ١٨١٥م ، نزل نابليون الى الارض الفـرنسيـة من جهة خليج « دون جوان ، وأصدر الى فرنسا منشورا قال فيه : ـ

« أيها الفرنسيون ان ما تقرر بلارضا كم لا يعد شرعيا ، ويا أيها الجنود أترضون أن تقـيد نسـورنا بأيدى الذين قضوا خـمسة وعـشرين عـاما وهم يطوفون فى انحاء اوروبا ليثيروا علينا الاعداء والذين حاربو الفرنسيين تحت الاعلام الاجنبية فـهيا اذا إلى رئيسكم واجتمـعوا تحت لوائه فان وجوده من وجودكم وحـقوقـه ليست الا من مـصلحتكم وشـرفكم ومجدكـم ان النصر سيأتى على جناح السـرعة والنسر الامبراطورى سـيطير بألوانه الوطنية من قبة جرس الى اخرى حتى يبلغ نوتردام » .

واصل نابليون السير بعد هذا المنشور فـهرع إليه أنصاره وجنده القدماء ولما صار عـلى مقربة مـن مدينة (جريـنوبل) وجد فـرقة من الجند أمـرتها الحكومة لسـد الطريق عليه فـما كان من بطل (اوسـترليـتز) الا أن نزل عن جـواده وتقـدم نحـو الجنود فـاتحـا صـدره قـائلا « أبينـكم من يريد قـتل

امبـراطوره » فحولت الجنود سـلاحها وصـاحت بصوت يشق عنان السـماء «ليحى الامبراطور » .

ولما غادر نابليـون (جرينوبل) تقدم إلى « ليـون » واستولى فيـها على السلطة الفعليـة رأى الملك البربونى ذلك فذعر ووجل فـأرسل فرقة من الجند تحت قيـادة الماريشال « ناى » لاسر نابليـون وكم كان مؤثراً مـنظر نابليون وقد اغـرورقت عيناه بالدموع حـينا تهافت « ناى » بين ذراعـيه فضـمه إلى صدره وعاد الجيش الذى أرسله الملك البربونى لاسر نابلـيون حرسا فخما له واضطر لويس الثامن عشر إلى الهـرب خوفا على عنقه وفى ٢١ مارس دخل نابليون مدينة باريس فوجد أن لويس قد فر قبل دخوله المدينة بيومين .

ولم يلبث نابليـون بمجرد أن اسـتوى على سـدته العلية ان جـمع القلوب حوله وخـفف من ثائرة الدول فأعلن رغبـته فى السلام وأعاد للأمـة برلمانها الذى كان مؤلفا من مجلسين أحدهما انتخابى والثانى أرثى وأشرك الأمة معه فى الحكم باصداره قرارات (القـانون الاضافى) فزاد من مسـئولية الوزارة أمام المجلسين التشريعيين .

رأت دول أوروبا انه من العبث أن يسلم نـابليون مهمـا تحمل من ويلات الحرب وأحاطت به الظروف الحرجة والمواقف الشديدة فتـعاونت جميعها فى القضـاء عليه حـتى لا يعود إلى تعكير سـلام اوروبا من جديد ومـا ظهر هذا التـحالف الاوربى حـتى كـان لدى نابليون ١٦ الف جـندى كلهم من شبـان فرنسا المتحمسين الاقوياء وكانت خطته ان يقضى على جيش كل من بروسيا وانجلترا على انفراد فقاتل فريقا بعد فريق وقهر كل قسم منهم على حدة .

قهر الجيش الفرنسى البروسيين تحت قيادة « بلوخر » عند « لينى » فى ١٦ يونيو١٨١٥م وانتصر عليهم أيضا عند (فلوريس) حتى تقهقر (بلوخر) إلى أن وصل (الواقر) التـفت نابليون إلى مـقاتلة الانجليـز بعد أن وكل إلى القائد « جروشى » أن يواصل مطاردة البروسيين ثم ينضم إليه للاجهاز على الجـيش الانجليزى وتمـكن الماريشـال « ناى » من طـرد الانجليز من (سـان جاز) بعد استيلائهم عليها .

أخذ نابليون يتعقب (ولنجتن) ليسحق قوته قبل أن يتم اتصاله ببلوخر وإنه لعلى تلك الحال واذا بغبار يملأ الفضاء والرصاص يصفر فى الهواء وجرت بينهما المعركة التاريخية الكبرى الا وهى موقعة (ووترلو) .

وفى الساعة الثامنة مساء من ليلة ١٨ يونيو وقع الحادث الحربى العظيم وهودخول الحرس الامبراطورى قلب المعمعة فان أربع فرق ألفت مربعا وأخذت تقاوم جيوش الاعداء فكان كل جندى منها يقاتل ثلاثين حتى فنيت ولم يبق منها الا واحد مع القائد كامبرون فأوعز إليه القائد الانجليزى بان يسلم فأجاب (كامبرون) ذاك الجواب التاريخى « ان الحرس يموت ولا يسلم » ولقد أظهر البروسيون فظاعة لطخت شرفهم العسكرى بالعار عند ما أسروا بقية أولئك الابطال فانهم أهانوا المارشال (لوبو) أبلغ اهانة وذبحوا الجنرال فاندام وجملة من الضباط .

ولقد أجمع النقاد الحربيون على أن الخطة الحربية التى وضعها نابليون فى تلك المعركة المعروفة بمعركة (ووترلو) لحدوثها عنه قرية(ووترلو) كانت أقوى دليل على سمو فكره وصدق نظره واصالة رأيه ولكن سوء الطالع الذى تمثل فى خطأ (جروشى) ومعاكسة الطبيعة له فامطرت السماء طول ليلة ١٨ يونيو فتعذر على الجنود نقل المدافع الضخمة كل ذلك أجهز وذهب بحظه الاسعد .

أسرع نابليون بالفرار من ميدان القتال وعاد إلى باريس والجنود الانجليزية تراقب الشواطىء عن كثب خشية هربه . ولما ضيق الخناق عليه تنازل لابنه للمرة الثانية ولقبه (بنابليون الثانى) غير أن مجلس النواب أبى أن يعترف به فرغب فى السفر إلى أمريكا .

ولكن سدى حاول لمحاصرة الشواطىء بالبوارج الانجليزية وبث الارض بالعيون والجواسيس من حوله ولما سد أمامه كل طريق ذهب إلى ربان السفينة الانجليزية (بيلورفون) وسلم نفسه لكرامة انجلترا وطلب البقاء تحت رعاية القوانين الإنجليزية ولكن انجلترا أبت مع حلفائها الا نفى نابليون إلى جزيرة (القديسة هيلانة) حيث قضى بقية حياته بعيداً عن ابنه وحيده الى أن قضى نحبه .

فكر نابليون بعد معركـة (ووترلو) فى الانتحار تخلصاً من إهانة النفى والاسر .

ثم عدل عن هذا الرأى فـرضى بالعيش فى جزيرة قـاحلة وتحمل فظاظة رئيس حراسه وحرمـانه من رؤية ابنه وفلذة كبده فأجاز بعـضهم لنفسه أن يحسب تفـضيل هذا العيش المر علـى الانتحار ضربا مـن ضعف القلب ولكن نابليون قال شيئا يـوضح لنا سر نكوصه « وهو أن كل انسان فى هذه الدنيا خلق لأمر يقوم به فيجب أن يبقى حياً ليتمه الى آخره » .

كان نابليون شـجاعا بالمعنى الصحـيح فأقدامه على الانتحـار كان ضربا من كره الحيـاة لما رآه من الانحطاط الانسانى لاجبنا ولا خوفـا من مصاعب شامخة .

وفى ٧ يوليو سنة ١٨١٥م احتلت جنود الحلفاء مدينة باريس واضطرت فرنسـا إلى امضاء معـاهدة (باريس الثانية) فى ٢٠ نوفمـبر سنة ١٨١٥م واشتلمت على الشروط الآتية :

١ ـ أن يحتل جنود الحلفاء مدينة باريس لمدة خمس سنوات .

٢ ـ أن تقوم فرنسا بدفع ضريبة قدرها ٧٠٠ مليون فرنك .

٣ ـ أن تتنازل فرنسـا عما استـولت عليه بعد سنة ١٧٩٠ وتعـود إلى ما كانت عليه .



الفصل الخامس عشر

أخلاقه مع قواده وجنوده

كان نابليون يعتبر جنوده أولاداً له بالمعنى الصحيح يشرف على امورهم ويسهر عليهم كما يسهر الاب على بنيه فكان شديد الانتباه على وجه أخص إلى اصاغر الجنود كان يعتقد ان الجندى الصغير قد يكون ذا قلب كبير .

كان يلبس نابليون لكل حالة لبوسها فيضع اللين فى محله والقسوة فى موضعها فكثيرا ماعفا عن جندى مذنب وقد رأى وجها لعذره وكثيرا ما أعرض عن التسامح اذا ما رأى أن التسامح مضر بالمصلحة الحيوية .

كانت له هيبة بين الجنودِ رغم انه كان حسن المعاملة اذ وجدها مدعاة لزيادة الاخلاص قال دوق فيسانس « ان تلك الشوارب القديمة (يعنى رجال الحرس) لم يكونوا يجسرون على مخاطبة أصغر ملازم فى الجيش بمثل ما كانوا يخاطبون ذاك القائد الاكبر الذى كانت هيبته تملأ نفس الجيش كله » واليك حكاية تدلك على شىء من خلقه :

« حدث أيام معارك بروسيا ان الجنود الفرنسية ضربت مضاربها لتستريح بعد السهر المضنى ثلاث ليال متوالية ولما ارخى الليل سدوله خرج نابليون يتفقد أحوال الحراس فى أطراف المعسكر جريا على عادته فى كثير من الاحيان ولا سيما فى الأوقات العصيبة فاتفق أثناء مروره أن رأى حارسا قد تسلط عليه النوم بعد السهر الطويل فهوى الى الارض ينام تاركا بندقيته الى جانبه فأراد نابليون ان يوقظه ولكنه ابصر فى تلك الدقيقة طوافة من الضباط قادمه نحوه فما كان منه الا ان أخذ بندقية الحارس النائم ووقف مكانه حتى لا يدع الضباط يبصرونه ويعاقبونه ولما طلبت الطوافة سر الليل أجابها نابليون فسارت فى طريقها لاتمام التفتيش وفى تلك الاثناء استيقظ الحارس النائم .

فوجد بندقيته بيد رجل غيره فأسرع نحوه فاذا هو قائده ومولاه ولكن نابليون سرى عنه قائلا (لاتخف) ثم سأله (كم مضى عليك من الزمن بلا

نوم) فقال (ثلاثة أيام ومع ذلك فأنى ما كنت لانام لولا ما أصابنى من الجروح) ثم أبصر نابليون أن الجندى كان مصابا بجرحين فأعجب به ومنحه وساما ثم قال وهو يبتعد عن ذاك البطل « لا ريب أنى أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال .

نابليون مع قواده : ـ كان فى معظم الاوقات يجرح باليمين ويداوى بالشمال ومما قاله الخصوم فى تفسير السلوك الحمية وأى لمصلحته الخاصة وقلة الرجال الا كفاء حملتا نابليون على مدارة الرجال) وهو تفسير لا يذهب بفضل نابليون ولا يحط من قدر سلوكه بل يدل على حسن سياسته ومدارته واصالة رأيه وليس بمنكر على الرجل أن يفعل الخير ويحسن صنعا لانه يتفق مع مصلحته أولان مصلحته كانت تدفعه اليه فانما الامور بنتائجها لا باسبابها .

كانت خطته مع قواده أن يكسر من حدة القوى الفخور ويثيرها حماسة البليد شرع يوما فى تعنيف ضابط فى رتبة كولونيل لان جنده أضروا بعمل مصلحى فشق على الضابط أن يسمع الكلام المر من قائده وأراد أن يتنصل .

فقال له نابليون همسا « أنا صدقتك فاسكت » وفى اليوم التالى دعا نابليون الكولونيل وقال له « كن مستريح الفكر فقد كنت أعنف فى شخصك بعض القواد الذين كانوا بجانبك ولو وجهت اليهم التعنيف مباشرة لأوقفتهم فى موقف يستحقون فيه التحقير أو ما هو أبلغ منه » .

خرح قائدا كبيرا بانتقاد شديد وهو الجنرال (مارمون)على بعض أعماله الحربية فى معركة (واجرام) فسخط (مارمون) من هذا الكلام وعاد إلى منزله كسير القلب شديد الكرب فما وصل حتى جاءه رسول امبراطورى يحمل إليه البشرى بترقيته إلى رتبة مارشال .

ولما استوى نابليون على العرش الامبراطورى لم يتغير شيء من عواطفه نحو قواده بل لبث يسمح للمارشال « لان » بأن يخاطبه بصفة المفرد وما بلغ نابليون خبر اصابته بجرح مميت حتى تلاه حزن عميق وأخذ يزوره صباح مساء .

واتفق انه وصل فى عيادته الأخيرة بعد أن لفظ المارشال روحه الطيبة فتقدم نابليون وقبله وبكى ثم أخذ يقول « يالخسارة فرنسا يا لخسارتى »

ولما حـاول (برتييــه) أن يذهب به ويكفـيه مـؤونة ذاك المنظر الأليم قاومـه نابليون نحوا من ساعة .

وفى اليوم التالى كتب الى أرملته يقول « أيتها النسيبة مات مارشال على أثر الجروح التى أصابته فى ساحة الـشرف فخلف لى من الحزن ما يضارع حزنك ولا غرو فـانى فقدت افضل قـائد للجيش وخير رفـيق وصديق لزمنى منذ ست عــشـرة سنة ان اســرته وأولاده لـهم كل حق فى طلب حــمـايتى ورعايتى » .

كان له شعـور رقيق لم يفارقه حتى فى ساعـة الحرب وبين أهواله كتب عن موقعة استرلتز الشهيرة فقال :

« انى لم أرســاحة من ساحــات القتــال أشد هولا وفظاعــة من استـرلتز فنحن نســمع من وسط البـحيـرات الواسعـة صراخ الآلاف من الرجـال ولا نستطيع مساعدتهم آه ان قلبى يقطر دما » .

وروى دوق رومنجو إن الامـبراطور نابليون امـتطى جواده بعد معـركة (واجرام) وأخـذ يتفقد ســاحة القتــال جريا على عادته وكـانت سنابل القمح عالية جـداً فلم يكن فى وسع الباحثين عن الجـرحى أن يروا الجندى الجريح فأخذ كثيرون من الجرحى المساكين يربطون مناديلهم برؤوس البنادق ليدلوا الباحثين عن مواضعهم .

وكان الامبراطور يذهب بنفســه إلى حيث كانت المناديل ويحادث الجرحى ويطيب نفوسهم ولم يعد من ساحة القتال إلا بعد أن نقلوا آخر جريح .

كان نابليون يظهر هذا الشعور الجميل لحد محدود ولم يكن ليحول دون استقلال فكره وارادته فـقد كان عند الضرورة شديداً قاســيا قصده الجنرال (دبينوا) سنة ١٧٩٧م بقصـد التملق والتزلف فـقال له نابليون « عـرفتك لما كنت قائـداً فى لمبارديا وعرفـت انك قليل النزاهة عاشق للمــال على أنى كنت أجهل انك جبان فأخرج من الجيش ولا تظهر أمامى مرة أخرى » .



الفصل السادس عشر

الحياة فى المنفى ـ موت نابليون

سلم نابليون نفسه الى الحكومة الانجليزية التى أخذته فى الخامس عشر من شهر يوليو ورحلته على ظهر الباخرة (بللروفون) التى رست بعد أسبوع فى ميناء (بليمث) ولم يلبث أن عومل نابليون فى مدينة (بليمث) معاملة السجين) لا الضيف .

كما كان يظن وقت أن سلم نفسه لكرامة انجلترا ورعايتها وقد رأت انجلترا ان جزيرة القديسة هيلانه خير مستقر له وبعد اسبوع من مقامه فى بليمث أمرت الحكومة الانجليزية بنقل نابليون إلى الباخرة (نوردثمبرلند) التى اقلعت الى جزيرة سنت هيلانه ورست على شواطئها فى اكتوبر سنة ١٨١٥م .

تلقى نابليون أمر النفى بالحزن الشديد وتناقش مع « لاس كاس » فى الانتحار فقال (انه الخلاص الوحيد فليس عندى أدنى مقاومة لهذه الفكرة فأريح أصدقائى الذين سيرافقوننى من مشقة السفر وتركهم أولادهم وعائلاتهم) ولكنه رأى انه سيرمى باللوم وسيكون تنفيذ فكرة كهذه وصمة فى تاريخه فاستسلم أخيرا للقضاء .

نزل نابليون بأرض قفر محفوفة بالصخور لايجاورها من سكن الانسان الا مايبعد عنها مئات الاميال واختيرت له السكنى على قمة جبل فى مكان يدعى (لنج وود) فى بيت رطب لا يعرف الشمس وبقعة غير صحية تبعد عنها المياه بقدر ثلاثة أميال على الأقل .

استولى على نابليون الغم والهم وشعر بالانقباض والقلق لما رآه من غلظة حاكم الجزيرة السير (هدسن لوى) الذى احتاط بكل الوسائل خشية هرب نابليون (كما كان يعتقد) فمثل معاملة سجان لا ضابط محافظ وارتكب فى معاملته الفظاظة وغلظة القلب ما جعل نابليون إلى عدم رغبته فى رؤيته .

فألغى وسائل المواصلات الحرة بين سكان الجزيرة و (لنج وود) ومزق الجرائد التى كانت تصل لنابليون أو كان يقص منها الاعمدة التى يجدها غير مناسبة فلا يوداطلاعه عليها .

وكان يفتح خطاباته قبل وصولها اليه وقد أرسلت لنابليون صورة الدوق ريشستادت مع أحد البحارة فأبى محافظ الجزيرة تسليمها إياه الا بعد مضى عدة أسابيع .

عاش نابليون بجزيرة سنت هيلانه من اكتوبر ١٨١٥م إلى مايو ١٨٢١م أى مدة خمس سنين ونصف كانت حياته فيها على تمام البساطه والهدوء وأخذ يكتب ماتوصيه اليه ذاكرته فى التاريخ وقد طبعت تلك المذكرات بأمر نابليون الثالث .

ـ مرض نابليون فتنبأ رفاقه سنة ١٨٢٠م ان حياته قصيرة وفى ديسمبر من تلك السنة بلغه نعى اخته (إليزا) فاذرفت عيناه الدمع وأخذ يتمتم ويقول « أرأيتم لقد فتحت لى الباب إليزا ان الموت الذى لم تعرفه عائلة بونابرت طرق بابها اليوم واختار إليزا . آه . ان دورى ليس ببعيد » وكان ما قال ففى ٥ مايو ١٨٢١م تنفس نابغة الخروب وبطل (استرليز) النفس الأخير وشهق الشهقة الأخيرة وامتد على فراشه جثة هامدة وبجانبه سيفه الذى كان يتقلده فى موقعة مارنجو .

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٤٠م دوت المدافع فى باريس على مسمع من الملايين المحتشدة وظهر موكب فخم لم تر العيون أعظم منه هيبة وجلالا وما وصل هذا الموكب تحت أقواس النصر حتى سمعت الملايين بكاء هو أقرب إلى زئير الاسود المتألمة منه إلى النوح والأعوال ، أولئك هم بقية الجيش الأعظم يبكون ويستبكون عند رؤية قائدهم وامبراطورهم راجعا على آلة حدباء الى عاصمته حيث يرقد الرقدة الأخيرة الأبدية .

قبر نابليون : وإذا توجهت لرؤية قبر نابليون العظيم فى المكان المعروف بالانڤاليد تقف وقد تجشمت أمامك العظمة والجلال ترى البناء الفخم الذى يشمل قبة عالية قد وضعت تحتها رفات هذا الجندى الباسل فى منخفض من

المكان بحيث يتحتم على كل من يريد أن يلقى نظرة على القبر أن يحنى رأسه بارادته أو رغماً عنه إجلالا لمن أصبح تحت الثرى جسداً هامداً وصعيداً جرزا .

هناك على باب القبر الذى ينزل إليه بسلالم من المرمر قد كتبت بالفرنسية بحروف من ماء الذهب آخر إرادة لهذا الجبار كتبها بخطه وتوقيعه (٦ ابريل سنة ١٨٢١ م) يوصى فيها بدفنه على ضفاف السين وسط الشعب الفرنسى الذى أحبه دائما .

وقد زين هذا الباب واركان القبر بالأعلام التاريخية التى استولى عليها نابليون فى مواقعه المتعددة ووضعوا فى جوانب نفس المكان على يمين الداخل ويساره تمثالين لاخوى نابليون چيروم ويوسف وهما ملكا اسبانيا وايطاليا .

ومن أروع ما تشاهده فى المتحف الحفرى بمدينة باريس حجرة نابليون وهو بجزيرة سنت هيلانه على فراش الموت وبجانبه خادمه الامين مطأطئا رأسه وقد أدركته سنة من النوم .



الكشاف العام

أولاً : الأعلام.

ثانياً : الأماكن الجغرافية.

ثالثاً : القبائل والبطون والطوائف.

رابعاً : الكتب الواردة في النص.

أولا : الأعلام

ثانيًا : الأماكن الجغرافية

ثالثًا : القبائل والبطون والطوائف

رابعًا : الكتب الواردة فى النص

***

الفهـرس

الموضوع | الصفحة



طباعة. نشر. توزيع

٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة

ت : ٣٢٥٠٢٠٢ - ٣٢٥٠٩٥٧